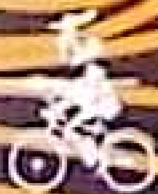


رواية

عائشة إبراهيم

صُندُوق الرَّمل



المتوسط

Sanduq Al-Ramel *by* "Aisha Eprahim"
© **Almutawassit Books** / © 2022 by Aisha Eprahim

المؤلف: عائشة إبراهيم / عنوان الكتاب: صُندُوق الرَّمْل
الطبعة الأولى: 2022
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 979-12-80738-34-9



منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese 120 / 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / قيصرية المصرف - طابق أول / ص.ب 55204
www.almutawassit.it / info@almutawassit.org

1

عند خطِّ النار، حيث يستعر جحيم المعركة في عين زَارَة جنوب طَرَابُلُس على مدى أسبوع كامل من القذائف ورائحة البارود والصقيع والمطر المضجِر، يُخبِّئ ساندرو كومباريتي أُمنيَّته السرِّيَّة بأن تَحدُث معجزة، تقذف به بعيداً عن هذا المكان المُوحِل، كان يظنُّ أنها أُمنيَّة سافلة تُعبِّر عن انحطاط داخلي، يخصُّه وحده في خضمِّ تناقضاته الجديدة، إلى أن شاهد نظرات الغَيْرَة في عيون رفاقه الجنود لمَّا اخترقت رصاصة كَتِفَهُ اليُمْنَى، وسمع همسهم وهم يتحدَّثون عن إصابات الحظِّ، تلك التي لا تقتل ولا تبتر أطرافاً، لكنها تمنح جواز المرور لخلاص آمن من حياة الجندية الكريهة، وأيقن، وهو على لوح نقَّالَة الإسعاف وينظر إلى بندقيَّته الملقاة بعيداً على حافَّة الخندق المملوء بالماء، أنها لن تلامس هذه الكَتِف المثقوبة مرَّة أخرى. وفكَّر وهو على ظهر السفينة التي تُقِلُّ الجرحى إلى مستشفى نابولي، في الخامس من مارس 1912، بأنه لو قرَّر لاحقاً كتابة مذكَّراته الشخصية، فسوف يتخطَّى هذا الجزء المُمِلَّ المليء بالتُّرَّهَات، وسيتجاهل خُطب المواساة وأوصاف البطولة المجَّانية وباقات الزهور البيضاء الشبيهة بأفخاذ الدجاج المجمَّد كلِّها، التي وُزِّعت عليهم في رصيف الميناء، سيذكر فقط كم هو مَدين لتلك الرصاصة التي جاءت في مكانها المناسب، لتضع اسمه في قائمة الانفكاك من الجيش الإيطالي، والعودة إلى حياته السابقة.

كان يتمنَّى أن ينتهي كلُّ شيء بسرعة، ويضع

الطبيب توقيعه على التقرير الذي سيُرسَل إلى هيئة الأركان في روما، فجاء ردُّه: "علينا مراقبة التئام العَظْم أسبوعَيْن آخرَيْن". حدَّثه جرحى آخرون أُصيبوا في معارك جُزُر الدوديكانيز على يد القوّات التركية في بحر إيجا، "إن الطبيب ليس قدِّيساً ولا ملاكاً مباركاً، وبالإمكان شراء توقيعه بخمسين ليرة فقط"، كما قال جندي بُترت ذراعه في إصابة بارجة قرب جزيرة رودوس: "إذا لم تكن ذراعكَ مقطوعةً، فعلى الأرجح ستُرسَل ضمن قائمة الاحتياط المتَّجهة إلى البحر الأدرياتيكي» مشيراً إلى تسع عشرة بارجة إيطالية ترسو بالقرب من سواحل البلقان. وعندما جاء والده لزيارته وأحضر معه سلَّة مليئة بالمعجَّنات الحلوة المَحشوَّة بالكريما، أرسلتْها له بَرْبَارَة بائعة الجبن، أهدى السلَّة بكلِّ ما فيها إلى الطبيب، وشاهده وهو يدفع قِطَع الكعك الطريَّة إلى فمه، ويمتصُّها بتلذُّذ نَهِمٍ، مُغمِضاً عينَيْه في نشوة حلاوتها، ثمَّ يلعق شفتَيْه قائلاً بلُكْنَة النابوليْتانو الرنَّانة: «يا للطَّعْم المُذهِل! يا للطَّعْم الفريد!»، ولم يكن متأكِّداً إذا كان للسلَّة يدٌ في استمالة الطبيب، إذ إنه لم يقل شيئاً وهو يناوله الورقة بعد الأسابيع الثلاثة.

قبل ذلك، خلال الأسبوع الثاني تحديداً في مستشفى نابولي، وفيما هو يَنْبُشُ أكوام الصحف الملقاة على طاولة خشبية بين أَسِرَّة الجرحى، باحثاً عن عمود الصحفي باولو فاليرا في صحيفة (لا فولا) المُستقلَّة، شاهد صورة بيانو القصر الباشويِّ، حيث كان حفل الضبَّاط قبل أربعة

أشهر، مُذيَّلاً بمانشيت عن تلك الليلة المشؤومة بعنوان (العرب يصطادون ثلاثة جنود إيطاليِّيْن بواسطة بيانو)، وقرأ له في وكالة سنترال نيوز: «جثث مئتَي امرأة بأطفالهنَّ مطعونة بحِرَاب إيطالية داخل مسجد في طَرَابُلُس»، تعجَّب من نفسه كيف استنكر هذا الفعل القبيح مُنزِّهاً ضميره عن كلِّ ما اقترفه من أفعال شرِّيرة؟! ربَّما لأن ضمير الإنسان وهو جالس يقرأ الأخبار من الصحف يختلف تماماً عنه وهو في الخارج يمارس حياته المعتادة. خمَّن ذلك وبفضول من نوع ما أدار قرص الهاتف طالباً رَقْم الصحيفة المُدوَّن على صفحتها الأخيرة، أجابه صوت فتاة: «فاليرا؟ نعم موجود، بإمكانكَ مقابلته».

لا يدري ما الذي سيقوله له وهو يغادر المستشفى باتِّجاه سنترو ستوريكو، حيث مقرُّ الصحيفة بمركز المدينة التاريخي تبتلعه الجدران البنِّية الداكنة المكتظَّة بكلمات الحبِّ التي كتبها المراهقون، «قبِّليني إنجيلا»، «أين أنتِ، يا سيلفانا؟»، «آه يا قلبي»، .. لا يستطيع أن يتَّهم نفسه بالرومانتيكية، لكن أجواء نابولي التي لم يتسنَّ له رؤيتها من قبل كما رآها اليوم، كانت سخية وحزينة وعاطفية وغارقة في حرارتها المشرقية، وعندما استعاد صورة مَسقَط رأسه في ميلانو وجد كم هي مُتكتِّمة ومُحاصَرَة في كياسة شَمَاليَّة باردة وثقيلة فيما تنبض نابولي بفوضاها الحلوة وروائحها الحارَّة المُبهِجة، تتوشَّح بالفقر والموسيقى وإعلانات المُتعة الرخيصة والطعام الرخيص والقهوة السريعة التي تُشرَب

وقوفاً على أبواب المقاهي، حيث يتبادل الناس التحيات بلا مناسبة، ويُكلِّمون بعضهم البعض من دون تعارف، كانت البساطة ذاتها التي استقبلتْهُ بها فتاة مبتهجة وبدينة كرغيف بيتزا مليء بفُقَاعات الجبن، تنحشر بصعوبة خلف مكتبها في مقرِّ الصحيفة، مشيرة إليه باتِّجاه مكتب فاليرا: «بإمكانكَ رؤيته». ولمَّا دخل عليه وجده مُنكبَّاً على كومة من الأوراق، قال من دون بوادر مفاجأة:

- أنتَ الجندي عازف البيانو التعس، ماذا تفعل هنا؟

خيَّم عليه ارتباك دام لِلَحظات محاوِلاً انتقاء تعبير مناسب يثير فضول رجل صحافة مُحنَّك، بإمكانه أن يهزَّ عرش إيطاليا بمقالة واحدة:

- سبق لي أن وقفتُ أمام كاهن، وأدليتُ باعترافي، لستُ بروتستنتياً، ولن أتورَّط في القول إن الكنيسة ليس لها سلطان على مَحْوِ الذنوب، لكنني حقَّاً أريد أن أعترف لكَ بأشياء مهمَّة وخطيرة، لا تعلم عنها الصحافة شيئاً حتَّى الآن.

نظر إليه منتبهاً إلى ارتعاشة ذراعه وقال:

- يبدو أنكَ مصاب.

- أَخرَجُوا رصاصةً من كَتِفِي.

- حسناً، يسرُّني أنكَ بخير.

- لا أدَّعي الإنسانية، أنا جندي ولا أعرف كيف أُصنِّف نفسي، أظنُّني أعاني الانفصام، ليس هذا موضوعنا، كنتُ أتمنَّى أن أكرِّس حياتي لقضية ما، مثلكَ، لكن الحرب وضعتْني في زاوية سيِّئة.

- أظنكَ لستَ على ما يرام، دعنا نحتسي بعض الليمونادة أوَّلاً.

أشار له بيده إلى باب يؤدِّي إلى شرفة صغيرة، بالكاد تسع كُرسيَّيْن من الخَيْزُرَان، وفيما كان يتجرَّع كأس الليمون صعقت آذانهم أنغام فرقة موسيقية تعزف لحناً جنائزياً، يرافقها رجال ونساء بملابس الحِداد، تتقدَّمهم عربة تحمل تابوتاً مُغلَّفاً بقماش أسود، كُتب على جانبَيْه: «جندي شجاع مات في طَرَابُلُس دفاعاً عن الحضارة والإنسانية»، وكان الحُوذِيُّ يمدُّ قُبَّعة الميت إلى المارَّة، فيقذفون فيها بعض القِطَع النقدية، أَخرَجَ فاليرا قطعة معدنية فئة خمسة سنتيماً قذفها في الهواء بحركة بهلوانية انتهت بها في القُبَّعة، سمعا شهقات متعجِّبة وضحكات فالتة فوق جوقة الأُغنيَّة الحزينة، ثمَّ غادر الموكب مثل كلِّ شيء غريب ومتناقض ومُسرِف في الفوضى والضجيج.

- أريد أن أُطلعكَ على شيء هامٍّ، بخصوص النساء القتيلات في المسجد.

- أها.

- كنتُ هناك مع فرقة الإعدام، كان من المنتظَر ترحيلهنَّ إلى مستوطنة العقاب في أوستيكا.

- وبعد؟

- جاءت التعليمات بإعدامهنَّ سريعاً بعيداً عن مراسلي الصحف لمَّا لم يعد هنالك مكان شاغر في السفينة، كانت مهمَّتي تقييدهنَّ بالحبال.

حدَّق فاليرا في ساندرو بنظرة مبهمة، ودوَّن

شيئاً في مفكِّرته وقال:

- مراسل الصحيفة قال ذلك أيضاً، لكن الأمر بدا لي بعيداً عن التصديق.

- حدث كلُّ شيء بسرعة، في الظلام الدامس، في الليلة الثانية من أحداث حَيِّ المَنْشِيَّة وشارع الشطِّ، كانت ليلة رهيبة، ستُّمائة عربي، من بينهم مئة وعشرون امرأة وثمانون طفلاً دفعناهم إلى قاع السفينة، كان من بينهم فتاة جميلة، اسمها حليمة، ارتكبتُ جريمة فادحة في حقِّها، ولا أعرف ما حلَّ بها الآن.

- كالعادة لن تتحدَّث الصحافة القومية عن ذلك.

- لهذا جئتُ إليكَ.

- لماذا تريد أن تخبرَني عن ذلك؟

- أريد أن أفعل شيئاً من أجل الفتاة، إن كانت على قيد الحياة، وإن لم تكن، فمن أجل الحقيقة.

2

تورينو- سبتمبر 1911

اعتلت المغنِّية جيا جارسيندا منصَّة مسرح بالبو في تورينو ليلة الثامن من سبتمبر 1911، محطِّمةً التوقُّعات الفضائحية المعتادة كلّها حين أطلَّت شبه عارية، تغطِّي مفاتنها بقطعة صغيرة من العَلَم الإيطالي بألوانه الثلاثة، وأنشدت بصوت أوبرالي فاخر أُغنيَّتها الجديدة: «تريبولي بيل سول دامور»(1). لكن ساندرو كومباريتي الذي استقلَّ قطار السادسة بتذكرة مجَّانية من ميلانو، وسيقضي ليلته في غرفة مُرفَّهة، ويحمل عشرين ليرة كاملة للتسكُّع مع الأصدقاء، لم يكن سعيداً على الإطلاق.

كانت أضواء الكشَّافات المسلَّطة من السقف تنهمر على الرُّكْح في شكل نجوم ودوائر متراقصة، تميل قليلاً، لتكشفَ وجوه عازفي الأوركسترا، ثمَّ تستقرَّ على جسد المغنِّية المنفلت بإغواء متعمَّد، قبل أن تتحوَّل إلى فُقاعات صغيرة، يبتلعها الظلام، ومع انهمار الضوء وتصاعد الأوبريت وانثناءات الجسد العاري، يتدافع الجمهور فوق المقاعد، ويطلقون هتافات ماجنة متبوعة بتصفيق محموم، أمَّا ساندرو الذي انحشر واقفاً في زاوية ضيِّقة بين صفِّ المقاعد والجدار، كان قد تلقَّى ما يزيد على ثماني لكمات من أفواج المتدافعين، أصابت وجهه وعنقه وأماكن أخرى من جسده، كما تلقَّى وكزة غير بريئة في مكان حسَّاس، جعلتهُ يتلوَّى من الألم، ما زاد الأمر بؤساً

هي تلك الرائحة النتنة التي تنبعث من إبطَي الرجل الضخم الملاصق له كلَّما رفع ذراعَيْه عالياً ليُصفِّق، أمَّا العجوز النحيل الذي يتشبَّث بمَسْنَد الكرسي خشية أن يدفع به أحدهم إلى الأرض، فقد أطلق ريحاً ممزوجة برائحة براندي سيِّئ التقطير، عندئذٍ صرخ ساندرو من شدَّة الحَنَق، ولعن الحاضرين كلَّهم الذين أفسدوا مُتعة الليلة التي انتظرها طويلاً. أخرج من جيب معطفه قُصَاصَة تحمل صورة جارسيندا، كان قد انتزعها من ملصق الدعاية المثبَّت على مقصورة القطار، كانت ترتدي فستاناً ريفياً ينسدل بغُنْج عن كَتِفَيْهَا، تُظلِّله قُبَّعة بيضاء كبيرة، وتجلس على كرسي من الخشب باتِّجاه مقلوب وقد احتضنت المَسْنَد بذراعَيْها في مشهد حالم، لطالما أسرتْهُ تلك الابتسامة المتعالية التي ترتسم على الزاوية اليمنى لشفتَيْها، فيما تنحسر عن اليسرى في قسوة متعمَّدة، وتساءل لماذا تقبض نصف ابتسامتها كأنها تضنُّ على عشَّاقها بجمال كامل؟! حاول الاهتداء إلى إجابة من اللحظة المزدحمة بالضجيج، حيث تقف نجمته هناك، بعيداً جدَّاً، حتَّى بالكاد أن يراها من خلف الأجساد المتراصَّة، تُثمِّن الفكرة السخيفة التي تقول إن جمال الأشياء في عدم اكتمالها، وكاد أن يُسلِّم بما خلص إليه من شعور بالرضا، وقناعة مُرتجاة من ظروف غير مواتية، لولا أن يداً بحجم مِجْرَفَة امتدَّت من خلفه، وانتزعت قُصَاصَة الصورة، شاهدها وهي ترتفع ويعلو معها السُّعَار المجنون، تمتدُّ إليها أياد أخرى تحاول اختطافها، لكن صاحب اليد الضخمة طرح الأجساد جميعها أرضاً، وشيَّع

الصورة عالياً، فأرسلت له جارسيندا من على الرُّكْح قبلة في الهواء، حينها غشيَ ساندرو من الغضب، ولعن الأقدار والحكومة والملك عمَّانويل الثالث والفيلق الرابع والثمانين مشاة. تلفَّت باحثاً عن بصيص مواساة عند رفاقه الذين اختفَوا في صفوف المقاعد، فلم يَرَ أحداً منهم، أصبحت حُمَّى التدافع في أوجها الآن، وارتفع إيقاع الأوبريت متناغماً مع طبقة السوبرانو متسارِعاً إلى أقصى مداه، لتُنشد جارسيندا المقطع الذي أصبح سيِّئ السمعة فيما بعد:

طَرَابُلُس ..

أرض الحبِّ المسحورة ..

ستغدو إيطالية بهدير المدفع ..

اذهبْ أيُّها الجندي ..

إيطاليا معكَ ..

والمواسم الحلوة تنتظركَ.

حينها تقافزت الأجساد بشكل هستيري، وانفجرت صرخات ضخمة، منتشية بسَكْرَة وطنية كبرى، ومَهوُوسة بشيء غير مرئي، وامتدَّت أياد تقبض على مدافع افتراضية، وأخرى تقتطف فاكهة وَهْمية بشكل شهواني، وأخرى تُلوِّح وتُجدِّف في الهواء دون أن تلوي على شيء، وكانت جارسيندا تتماهى بسطوة أنثوية مع الانبعاث الخصيب للحُلْم القومي، فتنزع من الذاكرة ما كان من الهزائم المخزية الأليمة، وتطبع ترنيمتها على الحناجر والشفاه بشطحات هذيانية مجنونة، وحتَّى عندما انتهى الحفل

وأُغلقت القاعة عَنْوَة، وتدخَّلت قوَّة من الشرطة لتأمين خروج جارسيندا دون احتكاك أو تحرُّش مباشر، ظلَّت الأُغنيَّة تُردَّد في الشوارع والحانات والمقاهي وشرفات المنازل ومحطَّات القطارات، وشيئاً فشيئاً بدت تخفت الأصوات الرافضة للحرب، وتبدَّلت لهجة الصحافة التي كانت تهاجم الحكومة، وتحدَّث الفلَّاحون بشوق غامر عن وفرة المحاصيل في واحة (تريبوليتانيا) التي تُنتج زيتوناً بحجم التفَّاح، وأصبحت تلك الأُغنيَّة هي الترنيمة الوطنية الخاصَّة بتحشيد الجنود الذاهبين للحرب.

مضت نصف ساعة منذ انتهاء الحفل دون أن يُوفَّق ساندرو بلقاء رفاقه، خمَّن أنهم غادروا مباشرة إلى الفندق لتناوُل العشاء والنوم باكراً، إذ إن فكرة التسكُّع في هذه الليلة تبدو غير مُجدية أمام المدِّ الهائل من ضوضاء الحرب ومناقشات السياسة والأغاني الحماسية التي تنطلق من مقرَّات الأحزاب القومية، وملصقات الاشتراكيِّيْن على واجهات المباني تُحرِّض على الإضراب العامِّ، وهتافات المستقبليِّيْن(2) تنادي بالفوضى الهدَّامة، وبالحرب لتطهير العالم من المتاحف والمكتبات والشعوب الضعيفة. جزم آسفاً أن تورينو الصاخبة الجميلة لا يمكنها أن تهب فتنتها الليلة إلى جنود على حافَّة الموت. لقد كانت دائماً مدينة عاشقة ومُلهِمَة وحُبْلى بالحياة، لكنها تأكل عاشقيها مثل عنكبوت شَبِقَة، لطالما سحرتْهُ بأحابيلها السرِّيَّة وهو يذرع أزقَّتها القديمة النائمة على ذراع نهر البو، يتنشَّق رائحة خبز الشوفان والبخار الحلو المنبعث من

معامل الشيكولاتة، يلاحق عازف أرغن فقيراً، يبيع سيرنادات قصيرة لعشَّاق متسكِّعين، ويسمع من السكارى في الحانات القديمة قصص أجدادهم من متسلِّقي الجبال الأشدَّاء الذين هبطوا من قِمَم الألب، واستوطنوا السهل الفسيح على نهر البو. لَكَم سحرتْهُ قصص التاريخ حين يسردها السكارى تحت وطأة الوَهْم اللذيذ، ينتحلون أدوار البطولات، ويشيرون بقبضات أيديهم في إيماءات عنيفة إلى قتالهم ضدَّ الغزاة من بلاد الغال والبرابرة والجنرال هنيبعل عندما اجتاح روما في الحرب البونية الثانية، ويُطلقون اللعنات بلُكْنَة مثالية على النمسا وملوك اللومبارد والفرنسيِّيْن ودوقيات السافوي.

كان شيء ما في نفسه يتوق إلى تورينو، إلى أناقتها المفرطة وجنونها المعمَّاري الجريء وأروقة البازيليك والقِبَاب الإهليجية المسكونة بالغموض والأساطير، كان مفتوناً بسِحْرها منذ أن كسر قيود الطفولة وتخلَّص من الوقار الكَنَسِيِّ الذي سيَّجتْهُ العائلة والكُتُب والصلوات، إنه التوق إلى الحرِّيَّة ولذَّة الاكتشاف وتشكُّل الذات، ولم تكن تورينو في نظره إلَّا وجه إيطاليا الحقيقي بتناقضاتها وقوميَّاتها ولهجاتها وهزائمها وأحلامها الرومانسية الوطنية كلِّها. وكلَّما عاد إليها تتراءى له بسِحْر مختلف، وطزاجة مُتجدِّدة، هذه المرَّة كان تَوقُهُ مشفوعاً بحُلْم اللقاء بنجمته المحبوبة ملكة الأوبريت الإيطالي، أمَّا وقد رحلت في سيَّارة فيات سوداء تحت حراسة مشدَّدة، فلم يعد هنالك شيء يدعو للإثارة، قال متحسِّراً

عندما خاطبه شرطي مع حشد من الجماهير أمام المسرح طالباً منهم المغادرة كاحتراز أمني ضدَّ المظاهرات وأعمال الشَّغب التي تُغذِّيها التيَّارات الاشتراكية، وشعارات العنف التي ينادي بها المستقبليُّون. شعر بالأسف لأن رفاقه على الأرجح قد آووا إلى الفراش ملتزمين بقوانين الجندية التي أعادت ترسيم عاداتهم، ليكون النوم في التاسعة مساءً بعد وجبة عشاء تسبق بساعة على الأكثر. في حَيِّ بورتا جينوفا مَسقَط رأسه بميلانو لم يكن هنالك قوانين للنوم، كان ولداً مُتسكِّعاً مغرماً بالسهر والغناء، تدعوه والدته ماريا بالزوني بالكنارينو نسبة إلى طائر الليل المغرِّد، وكان قبل أن يبلغ من العُمُر اثنَيْن وعشرين عاماً، أي قبل أن تدعو الهيئة العامَّة للجيش الإيطالي مواليد العام 1888 إلى التجنيد الإجباري، قد تخرَّج حديثاً في معهد الصحافة، ويواظب، منذ أن كان في الثانية عشرة، على دروس الأرغن في كاتدرائية القدِّيس لورينزو، كما يشارك ثلاث مرَّات في الأسبوع في تمارين الكورال الديني. وقد حاول والده باتشي كومباريتي الذي هجر والدته منذ ستَّة أعوام، ويعيش مع بائعة جبن، تعيل طفلاً مصاباً بالكُسَاح، أن يتوسَّط له ليحصل على عمل بمحطَّة القطار التي يعمل بها كعامل مكابح، كانت هناك وظيفة شاغرة لشخص، يمكنه القيام بتنظيف قنوات الحركة وإزالة السُّخَام من غرفة الوقود، لكنَّ حِرْصَ ساندرو على تقمُّص مظهر أرستقراطي مبتدَع، جعله يزهد في تلك الوظيفة ويتركها منذ يومه الثاني، وبعد لَأْيٍ استطاع الحصول على وظيفة عازف أرغن بالكاتدرائية،

وبمُرتَّب هزيل مقارنة بالمُرتَّب الذي كان سيتقاضاه في محطَّة القطار. في بعض الأيَّام كان يعطي دروساً في الموسيقى لأبناء العائلات النبيلة، وسبَّبت وسامته الريفية التي ورثها عن والدته الكثير من الصدمات مع سيِّدات المجتمع المُخْمَلي، فعندما حلَّ للمرَّة الأولى في بيت السيِّدة باتريسيا الأرملة ذات الثلاثين ربيعاً، أمالت رأسها إلى الخلف حتَّى وقعت قُبَّعتها، لكي تتمكَّن من تأمُّل قَوَامه الفارع، وشَعْره المسفوع بلَفْحَة داكنة، وحين مدَّت يدها لمصافحته سقطت نظراتها على شاربه الأسود المجدول بعَقْفَتَيْن صغيرَتَيْن، وشفتَيْه المكتنزَتَيْن بامتلاء مثير، وربَّما تعمَّدت أن تطيلَ أمد المصافحة، أو نسيت أن تسحب يدها من يده، فانحنى بكياسة وطبع قبلة صغيرة على ظاهر كفِّها قبل أن يسحب يده بتهذيب متحامل، كانت باتريسيا التي تحرص مع والدة زوجها الراحل على حضور قُدَّاس الأحد بكاتدرائية القدِّيس لورينزو، قد عرضت عليه أن يعلم ابنها ذا الأعوام السبعة دروس الأرغن، ولم تكن تمانع حين يخرج عن الدرس المقرَّر، فينتزع الكمان الأحمر المعلَّق على جدار غرفة الاستقبال ويعزف فالسات رومانسية تُحلِّق بهما عالياً، وفي ذُرىَ التحليق الممتع الحالم يجدان نفسَيْهما قد بلغا الطابق الثاني، حيث غرفة النوم. وفي يوم غابت فيه والدة الزوج عن البيت، فراوغت الأرملة الشابَّة الطفل ليبقى في غرفته، تاركة له رقائق البسكويت وقِطَعاً كبيرة من حلوى المارشميلو، ثمَّ دَلَفَتْ إلى غرفة الدرس بثوب أحمر طويل عاري الكَتِفَيْن، وفي الوقت الذي اقتعد

الشابُّ في مكانه على الكرسي الصغير المخصَّص للعزف، قفزت فوق صُندُوق البيانو ناثرة أطراف ثوبها على لوحه المصقول، في تلك اللحظة التي تصاعدت فيها سوناتا ناعمة ومتودِّدة على سُلَّم دو الصغير، اقتحمت السيِّدة الكبيرة الخَلْوَة دون سابق إنذار، وخزت بعصا المِظَلَّة التي كانت تحملها ياقة قميص الشابِّ، وانهالت عليه ضرباً وهي تدفعه نحو الخارج، ثمَّ أقفلت الباب بعنف.

بعد تلك الحادثة صرف النظر عن الدروس المنزلية، وحاول نشر مقالاته حول الفنِّ والموسيقى على صفحات كورييري ديلا سيرا، الصحيفة الأكثر مبيعاً في إيطاليا، ويترأَّس تحريرها معلِّمه السابق لويجي ألبرتيني، الذي عُرف بكتاباته الساخنة والمعادية لسياسة جيوفاني جوليتي رئيس الحكومة، مُتَّهماً إيَّاه بالتستُّر على محافظ بنك دي روما المتَّهم بالاختلاس، قبل أن تتحوَّل لاحقاً إلى صوت للقوميِّيْن والحكومة، أشار على ساندرو أن يختار موضوعاً جادَّاً يلامس معاناة الناس، فاقترح أن يعدَّ تقريراً عن مسيرة الأُمَّهات التي ستخرج في الأسبوع المقبل رافضة لقرار الحرب على ولاية طَرَابُلُس الغرب على الساحل الأفريقي، جاء ردُّ رئيس التحرير بالرفض، رَغْم تأكيده الدائم على التزام الحيادية، انتهت مجادلات ساندرو مع الصحيفة لمَّا وصلتْهُ رسالة استدعاء من هيئة أركان الجيش الإيطالي بفرعها القائم في ميلانو، تدعوه للخضوع لِلَجنة الفَحْص الطبِّيِّ تمهيداً للالتحاق بالجيش، يومها خرجت النساء

في حشود كبيرة، يطالبنَ بعودة الأبناء إلى أحضان أُمَّهاتهم، ويحملنَ الشعارات واللافتات التي تُذكِّر بهزيمة معركة (عَدْوَة) قبل أربعة عشر عاماً، حين خسرت إيطاليا خمسة آلاف من أبنائها في مغامرتها بأثيوبيا، في ذلك اليوم تدخَّل رجال البوليس وهاجموا النساء بعنف، ومزَّقوا اللافتات التي تسبُّ قائد الحملة الجنرال باراتيري، وقد كُتب عليها: «أيُّها الجنرال المهزوم، أين أولادنا؟»، أخبرتُهُ أُمُّه أنها كانت خائفة جدّاً وقلبها يخفق بقوَّة وساقاها ترتعشان حين سارت مع بقية جموع النساء المتظاهرات باتِّجاه مقرِّ عُمدة ميلانو، وكيف خرجتْ عليهنَّ قوَّات البوليس، وقذفتهنَّ بالمفرقعات وقنابل الدخان، وكيف أصابتها نوبة من السُّعَال، وكادت أن تنقطع أنفاسها، لولا أن سحبتْها إحدى رفيقاتها من مكان الاختناق، كانت دائماً تقول الموت للجنود والانتصارات للقادة. وتُكرِّر في كلِّ مناسبة بعد أن فقدت والدها في حروب النمسا: لقد مات أبي وعاد الجنرال البطل غاريبالدي منتصراً. لطالما بغضتْ هؤلاء القوميِّيْن الذين يؤمنون أن الحرب ترفع من مكانة الأمم، ويردِّدون شعارهم السخيف: «إذا انتابكَ شعور بالضعف، فاخرجْ واقتلْ شخصاً»، كانت تتقيَّأ في طفولتها حين تحكي جَدَّتها قصَّة الملك العجوز الذي يضاجع طفلة رضيعة كلَّ يوم، لأن دم عذريَّتها سوف يُعيد له شبابه، ويبدو أن لوسيفر الشيطان كان صاحب الفكرة ذاتها لمَّا وسوس لهم أن حمَّام الدم سوف يُعيد إلى إيطاليا أمجاد روما المَنسيَّة. لم يجد ساندرو شيئاً ليقوله إلَّا ما يقوله لهم

الجنرالات في ساحة التدريب: إنها ليست حرباً، إنها فقط نزهة بحرية صغيرة.

كان كلَّما اعتصرتْهُ نوبات الإحباط ينسحب إلى غرفته، يستلقي على السرير الحديدي القديم الذي كان يجمع والدَيْه، عندما كانا في أوج عشقهما، قبل أن يذهب والده، وتستبدل والدتُهُ بالسرير آخر من الخشب الواطئ، لتدرأ به أوجاع الدوالي في ساقَيْها المنهَكَتَيْن، أو لتهربَ من ذكريات قصَّة الحبِّ القديمة، التي طالما كانت تُحبُّ أن ترويَها في أُمسيَّات الشتاء، كانت في التاسعة عشرة حينما جاءت لتعمل مُمرِّضة في مستشفى ماجوري، تعرَّفت على باتشي كومباريتي الذي كان يتسكَّع عند محطَّة القطار، ورآها أوَّل مرَّة، فتاة جميلة بشَعْر داكن مُنسدِل على كَتِفَيْهَا تحمل صُندُوق ثيابها، وتترجَّل من قطار بافيا، وتسأل المارَّة عن مستشفى ماجوري قفز مُتخطِّياً الحاجز المَعدِني الذي يفصل العربات عن باحة المحطَّة، ووقف أمام الفتاة، انحنى واضعاً ذراعه خلف ظهره، وضمَّ قُبَّعته الزرقاء القديمة على صدره، وحيَّاها بابتسامة سخية، وتابع سريعاً:

أظنُّكِ الآنسة التي جاءت للعمل بالمستشفى، لقد أرسلوني لاستقبالكِ.

لم تتمالك الفتاة نفسها من الفرح، فسلَّمتْهُ صُندُوق أمتعتها وهتفت مرحِّبة:

اسمي ماريا بالزوني، جئتُ من بافيا.

قدَّم نفسه إليها بأنه عامل الاستقبال في

المستشفى، فسارت بجواره مطمئنَّة في المدينة الكبيرة وبين الوجوه الغريبة، تراقب كَتِفَيْه وقَوَامه الفارع، ويتراقص من حولها شعور خفي بسعادة مُنتظَرَة، تعتريها جاذبية غامضة ظلَّت أسيرة لها، حتَّى عندما اكتشفت كذبته، وعرفت أنه شابٌّ متسكِّع وعاطل عن العمل، كان ذلك مَدعَاة لفضول مثير من الصعب مقاومته، يزداد تأجُّجاً كلَّما زاد إصراره على لفت انتباهها بأكاذيب جديدة يستغرقان في الضحك بعد افتضاحها، لكنه أراد حقَّاً أن يفوز بقلبها، صارت نقطة انعطاف كبيرة في حياته الفارغة، حيث وافق على شروط مدير محطَّة القطار كلِّها، وتسلَّم وظيفته في المحطَّة كعامل نظافة، يَجُرُّ ممسحته على البلاط المغبرِّ، ويُلَمْلِم أكداس السُّخَام، ويَفرُكُ مقاعد المقطورات بفوطة مبلَّلة بالجازولين، لم يكن يشعر بالخجل من تلويث ملابسه، وتلك البقع السوداء التي تُلطِّخ جبينه، كانت تراها أوسمة حُبٍّ صغيرة، تشهد رحلة كفاحهما المشترك. لطالما تباهت به كلَّما سار إلى جوارها أو اصطحبها في نزهة أيَّام الآحاد، وحين يعود بها إلى مقرِّ إقامتها في المستشفى تنزع شَعْرة من شَعْرها البنِّيِّ المتدفِّق، وتدسُّها في جيب قميصه، فيقبل باطن كفِّها ويغادر، وفي يوم، لم يكن يوم أحد، اقتحم على غير العادة غرفة الممرِّضات يحمل باقة يانعة من زهور الكاميليا ملفوفة بورق صحيفة صفراء، جذبها من ذراعها، وصاح بلهجة خالية من أيِّ مُزَاح:

تعالي معي إلى الكنيسة، سنتزوَّج الآن.

ثمَّ اقتادها مُهرولاً، وهي تتعثَّر بأطراف تنُّورتها الصفراء المتطايرة من تحت مِئْزَر التمريض، وتطرح أطناناً من الأسئلة الغبية في موجة ضحك هستيري، أصابتْهما معاً، وانتهت بقبلة الزفاف في كنيسة سانتا ماريا.

تمكَّنا من استئجار بيت صغير بضاحية بورتا جينوفا بثلاث ليرات، كان بيتاً قديماً في زُقاق خلفي، يشرف على ساقية من نهر البو تتجمَّع عندها النساء لغَسْل الملابس وإلقاء القاذورات السائلة، في المساء تَهُبُّ عواصف من البعوض، يطاردها الأهالي ببخَّاخات الكاز. وعندما وُلد طفلهما البِكْر أرتورو، حاكت ماريا ستائر من التول تنسدل من السقف كخيمة فيكتورية، تَحْجُبُ البعوض عن السرير الذي يجمع ثلاثتهم. لكنه سرعان ما ضاق بهم بعد ولادة كاترينا التي جاءت بعد عام واحد من ولادة أخيها، أمَّا ساندرو، فقد تأخَّر سبع سنوات كاملة قبل أن ينضمَّ إلى الأسرة، ليحظى بكلِّ ما يمكن أن يقدِّمه الكبار من الاهتمام والتدليل. كان باتشي قد تدرَّج في وظيفته بعد تدريبه على كيفية تعشيق حركة مكابح القطار، وتوجَّب ذلك سفراً دائماً بحسب جدول الرحلات بين محطَّات الشَّمَال. أتاحت الوظيفة أن يتعرَّف على وجوه كثيرة، وأن يلتقي بشخصيات في السياسة والفنِّ ورجال الأعمال، كان يستقلُّ قطار فيرونا عندما دعاه رجل أربعيني أنيق، ليشاركه وجبة من شطائر الكالزوني بشرائح السّلامي المدخَّن وزجاجة ميرتو تحمل خَتْم سردينيا، كان في مزاج لطيف، وتبادل معه حكايات كثيرة ونُكات سَمْجَة

عن شعوب البلقان الكريهة والنمسا الإمبريالية، وثرثرات كثيرة ما كانت تُتاح لولا رتابة الرحلة ومَلَل الرجل الأنيق، سأله فيما بعد:

هل سألتَ نفسكَ لماذا أنا أتناول الشطائر المَحشوَّة باللحم، وأحتسي الميرتو السرديني الفاخر، بينما أنتَ تسافر طَوَالَ اليوم بين محطّات القطارات جائعاً وعَطِشاً؟

هكذا جاء السؤال مفاجِئاً وغريباً، وشعر باتشي بحسٍّ فَطِنٍ أنه أمام مغامرة صعبة، يُراد من ورائها اختباره في مسألة ما، ولأنه لا يملِك خيوط اللعبة التي يمسك بها الرجل، قرَّر أن يتحرَّر من تحفُّظه، فليس لديه ما يخسره، مسح فمه بطرف كُمِّه، ومرَّر لسانه على أسنانه لاعقاً ما تبقَّى من فضلات الطعام، وقال بصوت وَجِلٍ:

أظنُّني أنا أيضاً أتساءل.

لا يجدر بكَ التساؤل، عليكَ أن تجيب.

أوه نعم، ربَّما لأن السماء ليست عادلة معنا.

أو ربَّما الحكومة.

أَيُعقل هذا؟ يجب أن لا نقول ذلك.

وهل نقول إن السماء ليست عادلة؟

ربُّ السماء يَغفِرُ، لكن الحكومة لا تَغفِرُ.

نحن مَنْ يصنع طغيان الحكومة.

سيِّدي، لقد كنتَ كريماً معي، وشاركتَني طعامكَ، لكنني رجل فقير ولديَّ أطفال وزوجة.

أَصْغِ إليَّ، يا باتشي، أنتَ مَنْ تُقدِّم الكالزوني

للأثرياء، هل تتخيَّل ذلك؟

لا أعرف، يا سيِّدي.

وأنتَ مَنْ تُقطِّر لهم اليانسون، ليصبح ميرتو.

أمم.

توقَّف عن تعشيق المكابح، وسوف يتوقَّف القطار كلُّه.

ماذا؟؟

أظنُّكَ فهمتَني.

أدرك أنه كان وجهاً لوجه مع فيليبو توراتي رئيس حزب العمَّال الاشتراكي، دعاه إلى زيارته في مقرِّ الحزب، وسرعان ما مَكَّنه من الانضمام إليهم، مُراهِناً على الذكاء الفِطْرِيِّ الذي يحظى به باتشي وعلاقته بطبقة واسعة من عمَّال السكك الحديدية، اندمج باتشي في النشاط الحزبي مع زملاء آخرين من عمَّال المحطَّة، انخرط في حركات تدعو إلى تحرير العمَّال والنضال ضدَّ الرأسمالية ومحاربة العنف وتأميم وسائل الإنتاج، وحين انطلقت احتجاجات باليرمو وصِقِلِّيَة والجنوب الإيطالي فيما عُرف باسم ثورة الخبز عام 1898، بسبب ارتفاع التعريفة الجمركية على القمح المستورد من أسبانيا بعد حربها مع أمريكا، قاد باتشي حَرَاك التحريض على الثورة في ميلانو، وتعرَّف على بربارة كريسبي الأُمِّ العازبة التي تملِك معملاً صغيراً للجبن، وترعى طفلاً مصاباً بالكُسَاح، كانت امرأة جريئة ثلاثينية ضخمة البنية، دفعت النساء العاملات إلى الخروج إلى الميادين، وإشعال الحرائق، وإلقاء الحجارة والمخلَّفات من

فوق أسطح المباني لعرقلة سلاح الفرسان الذي قام بإطلاق النار على المتظاهرين. يومها شهدت ميلانو أعنف أحداث مأساوية خلال العِشريَّة الأخيرة من القرن، راح فيها مئات الضحايا، ولمَّا اعتقلت الشرطةُ أعضاءَ النقابات والنُّوَّاب المنتمين إلى الحزب الجمهوري والاشتراكي، ورؤساء الصحف المحرِّضة، وألقت القبض أيضاً على فيليبو توراتي، وحُكِم عليه بالسجن اثنتَي عشرة سنة، تمكَّن باتشي كومباريتي من الفِرَار مع بربارة كريسبي، واختبآ في غرفة مُلحَقَة بمزرعة أبقار، يتعهَّدها عامل صِقِلِّيٌّ من أصدقاء بربارة، كان قد أخبرهما خلال اليوم الثامن أن الحكومة قد أعلنت العفو العامَّ عن المتظاهرين من أجل احتواء الأزمة، لكنهما قرَّرا تمديد فترة الاختباء ثلاثة أسابيع أخرى، مطالبين العامل بعدم الإزعاج.

(1) طَرَابُلُس أرضُ الحُبّ الجميلة.

(2) المستقبلية، بالإيطالية (futurismo) حركة فنِّيَّة تأسَّست في بداية القرن العشرين على يد الكاتب الإيطالي مارينيتي، وتعني التوجُّه نحو المستقبل والانفصال عن الماضي، وتميل إلى الصَّخَب والانسلاخ عن كلِّ ما هو عاطفي أو تقليدي.

3

على الطاولة المخصَّصة لهم، في قاعة الطعام بفندق أوستريا ديلا دوجانا نوفا الذي يقع في حَيِّ كونترادا، ويُوفِّر خدمات خاصَّة إلى النزلاء القادمين من ميلانو، ينهمك ساندرو مع رفيقيه مارغريتي وريكاردو في التهام السباقيتي مع ديك رومي تغطِّي نهاية وِرْكَيْه قطعتان مروحيَّتان من ورق مُفضَّض، حين هبَّ موظَّفو الفندق، ببِزَّاتهم المُخْمَلِيَّة السوداء وصفوف الأزرار على جانبَيْها، في جَلَبَة مثيرة للانتباه باتِّجاه السُّلَّم ذي الدرابزين الخشبي، هتف مارغريتي، وهو يشدُّ شَعْره الأحمر بأصابعه، ويشير باتِّجاه السُّلَّم:

انظرا، أَتريان ما أراه؟

جيا جارسيندا!! هتف ساندرو:

وترتدي ثيابها كاملة، أضاف مارغريتي.

هذا من سوء حظِّنا. قال ريكاردو.

غمز الشبَّان بضحكة لئيمة، ووقفوا مع بقية نزلاء الفندق للتصفيق لجارسيندا وهي تعبر من ممرِّ السُّلَّم، وتتَّجه نحو بهو الجلوس مع ثلاثة من مرافقيها، ردَّت بانحناءة قصيرة وتلويحة من يدَيْها على تحية الزبائن، وجلست على الأريكة المُخْمَلِيَّة واضعة ساقاً فوق الأخرى. كانت ترتدي فستاناً فيكتورياً طويلاً، ينتهي في أطرافه بكَشْكَشَة كبيرة، وتجمع شَعْرها الأسود في رولو كبيرعلى جانبَي وجهها، أطلق ريكاردو ماركيتي أصغر الشبَّان سنَّاً، وأقصرهم قامة، صفيراً وَقِحَاً، فعالجه مارغريتي بوخزة من شوكة الطعام ملطَّخة

بالخردل كانت كافية لإبعاد حارسها الضخم الذي نظر إليهما بشَرَر من مَقْعَد مقابل، أمَّا ساندرو، فاكتفى باستراق نظرات بين الحين والآخر، وهو يُقلِّب خيوط السباقيتي في صَلْصَة الطماطم والرَّيْحَان.

لطالما تساءل عن السرِّ الذي ينضوي عليه فندق أوستيريا ديلا دوجانا نوفا، الذي جعله مَقصِداً لشخصيات شهيرة، كان يعتقد أن هذا المبنى المُطَعَّم بتقاليد الباروك المحلِّيِّ والتيجان الكورنثية وتَكْسِيَة قليلة من الطوب الأحمر قد شُيِّد خصِّيصاً لتقديم خدماته إلى النزلاء القادمين من ميلانو بسبب الشهرة الواسعة التي يحظى بها بين السكَّان هناك، لكنه حين وصل عشية هذا اليوم تطوَّع موظَّف الاستقبال، وكجزء من دعاية ليست مجَّانية، باصطحابه في جولة لبعض الغرف الشاغرة، وعرض عليه غرفة ذات طلاء زيتي وسقف مزركش بنقوش نحاسية، أخبره أنها كان قد نزل بها نابليون صيف عام 1800 بعد عودته من معركة مارينغو، إنها غرفة للرجال الأقوياء، قال الموظَّف بحماسة وهو يزيح الستائر البنِّيَّة عن النوافذ الكبيرة المُطِلَّة على شارع ديل سيناتو بمحلَّاته التجارية ذات الأفاريز المُطَعَّمَة بالزخارف الباروكية والمُضاءَة بوَهْج الفلورنس، لكن ساندرو الذي لم يكن مُهتمَّاً بأخبار الحرب والسياسة، على الأقلِّ حتَّى ذلك الوقت، قَدْر اهتمامه بالموسيقى، كان حائراً بين اختيار غرفة جوزيبي فيردي، ابن ميلانو عميد الأوبرا الإيطالية، أو الغرفة التي أقام بها عبقري الموسيقى موزارت أسبوعَيْن كاملَيْن

عندما جاء مع والده إلى تورينو، ليحتفل بعيد ميلاده الخامس عشر. وما كان ليفكِّر كثيراً في حال كانت غرفة جيا جارسيندا هي إحدى الخيارات المطروحة في مرَّة قادمة، أمَّا الآن، ولذكريات خاصَّة ترقد في قاع عميق من قلبه، اختار غرفة استثنائية، لم تتنفَّس الموسيقى بين جدرانها، لقد تنفَّست فيها امرأة شابَّة تحتضر من الحُمَّى، كانت قادمة من فرنسا، ورفضت مستشفيات تورينو جميعها معالجتها، قادتْها الأقدار إلى هذا الفندق، وهنا بحثوا لها عن كاهن يرافقها في موتها، حضر القدِّيس كوتولينغو، وبعد أن فارقت روحها بكى وهو يصلِّي وقال: «يا إلهي، لماذا أردتَني أن أكون شاهداً على هذه القسوة؟»، تلك العبارة التي كُتبت على لوح الرخام في واجهة الفندق للدعوة إلى الرحمة والعناية الإنسانية.

توافد على بهو الجلوس أشخاص كثيرون، تبيَّن لاحقاً أنهم جاؤوا لتهنئة جارسيندا بإطلاق أُغنيَّتها الجديدة، (تريبولي) التي غنَّتْها قبل ساعتَيْن في مسرح بابلو، وعلى الأرجح أنها دَعَتْهم للاحتفال بهذه المناسبة، إذ إنه شاهد مراسلي صحف ووكالات أخبار، أمَّا مُعلِّمه لويجي ألبرتيني رئيس تحرير صحيفة كورييري ديلا سيرا، فقد أصرَّ على أنه ينزل هنا بالمصادفة شأن أبناء ميلانو عندما رآه يقف أمام المرآة الكبيرة قريباً من السُّلَّم وقد فرغ للتوِّ من تعديل ربطة عُنقه الحمراء، ومرَّر كفَّه فوق شَعْره الأشقر القصير، نهض ساندرو لمصافحته، فهتف مُرحِّباً:

ساندرو كومباريتي، كنتُ أظنُّ أن الجنود لا يحقُّ

لهم اللهو.

يا مُعلِّمي البرجماتي العزيز، نحن في إجازة، أسبوع واحد فقط للترفيه ووداع العائلة.

لا أظنُّكَ ستهاجر إلى أمريكا.

فات الأوان، لقد أصبحتُ جندياً كما تعلم، عليَّ أن أُبحرَ إلى تريبولياتانيا، أرض الحبِّ الجميلة.

قال جملته الأخيرة، وأشار بغمزة باتِّجاه جارسيندا التي كانت تقف في البهو المقابل وقد تحلَّق من حولها عدد من الرجال والنساء يتبادلون تهليلاً مُدوِّياً، ثمَّ أضاف:

تعال أُعرِّفكَ على صديقَيَّ، هما أيضاً من الفيلق الرابع والثمانين مشاة، سنُبحِر معاً في الأيَّام المقبلة.

نهض الشابَّان لمصافحة ألبرتيني بنظرات إعجاب، كان ثلاثينياً جذَّاباً بعينَيْن خضراوَيْن، يَرْفُلُ في بدلة رمادية أنيقة، ويتفنَّن في اقتناص المجاملات الذكية، أَمطَرَهُم كعادته بالأسئلة الصحفية، دون أن يبدوَ عليه الاهتمام بسماع الأجوبة، لكنه أدار رأسه بإنصات بالغ حين قال ساندرو:

فكَّرنا أن أفضل ما نقوم به قبل الموت أن نُحقِّق حُلْمنا بحضور حفل جارسيندا، لنكتشف مصادفة أنها تقيم في الفندق نفسه.

لن تموت أيُّها المحتال، سأنتظركَ في كورييري بعد تحرير طَرَابُلس، فأنتَ أفضل مَنْ تدرَّب في الصحيفة، دعني الآن أُعرِّفكَ على جيا، سيُرضي غرورها أن تعرف أنكم هنا من أجلها.

أنا مُتشوِّق لذلك.

انتظرْ منِّي إشارة.

قالها وغادر، توجَّه ريكاردو إلى غرفة التواليت، ومارغريتي إلى الزاوية المخصَّصة للتدخين، جاءت خادمة أثيوبية شابَّة على قَدْر من جمال منطفئ، وانحنت لتنظيف الطاولة، لم يفهم ساندرو ساعتئذ، إن كانت تلك الانحناءة الطويلة التي كشفت أمامه أسفل نَحْرِها، تحمل في طَيَّاتها دعوة مُبطَّنة لشيء ما، لكنه على أيِّ حال لم يُلقِ بالاً لتساؤلاته، ظلَّت نظراته مشدوهة باتِّجاه جارسيندا، كانت تُقهقه بصوت عالٍ، وتملأ القاعة بتهتُّك أرستقراطي مثير، مزيجٌ من الكبرياء والتسلُّط والجاذبية المتفرِّدة وبراءة لا تخلو من نَزَقٍ.

اكتظَّ البهو بثُلَّة من أصدقائها، تُرافِق بعضهم زوجات أو رفيقات يرتدينَ معاطف الفرو الثقيلة في ذلك الطقس الحارِّ، وفور وصولهنَّ توجَّهنَ كما العادة الغامضة إلى التواليت لسبب ما ظلَّ عَصِيَّاً على فَهْم الرجال، شاهد ألبرتيني ينحني ليُقبِّل يد جيا، ثمَّ يهمس شيئاً في أُذُنها، ويلتفت نحوه مُلوِّحاً بيدَيْه، انتابتْهُ رَعْدَة مُفاجِئة لمَّا شاهدها تبحث عنه بعينَيْها، ثمَّ تُلوِّح له هي الأخرى، كأنه صديق حميم، وحين اقترب مع رفيقَيْه، أشار لهم جراسنة الفندق إلى مقاعد إضافية مصنوعة من خشب نبيل، صُفَّت بجوار الصُّنْوَان الذي يفصل البهو عن قاعة الطعام، وكان من المتوقَّع أن تقف جارسيندا لمصافحة الشبَّان حين قال لها ألبرتيني إنهم: «جنود

شجعان في طريقهم إلى تريبوليتانيا»، فأرسلت ابتسامة كاملة ومنفرجة عن آخرها، تلقَّاها ساندرو بِمِهْرَجَان من الفرح، لكنْ، في لحظة غير متوقَّعة اندفعت دَرْفَة النافذة التي تُرِكَت للتهوئة بفعل ريح قوية، وتحطَّم زجاجها على الجدار الذي ارتدَّت عليه، تحرَّكت الستائر وتطايرت بجنون داخل القاعة، فأوقعت مِنْفَضَة السجائر الموضوعة على الطاولة ما بعث حالة من الفوضى، وفي لحظة انفجرت السماء بوابل من المطر انهمر كشلَّال استوائي مجنون، كان كلُّ شيء قد حدث هكذا فجأة دون سابق إنذار، وتساءل الرجال: أيّ يوم نحن فيه الآن؟ وأومؤوا برؤوسهم باتِّفاق على أن سبتمبر هو الموسم الطبيعي للمطر، فلا جزع من ذلك، وبدت علامات الارتياح واضحة على النساء اللاتي ارتدينَ معاطف الفرو، فلم تعد أحوالهنَّ مثيراً للشفقة، فيما شعر الشبَّان بالمَلَل، وهمس ريكاردو: «أين الشراب؟».

نهضت جارسيندا لتحية الموسيقار بروليتي، امتناناً لحضوره الشرفيِّ رَغْم حالته الصحِّية، بدا مبتهجاً، وتنضح من مَغَارَتَي عينَيْه رغبة جامحة في الحياة، وحاول أن يُخفيَ يده المصابة بالرُّعَاش تحت كُمِّ المعطف، ثبَّت نظَّارته ذات الإطار الذهبي، وقال بصوت حادٍّ يكاد يتحوَّل إلى طبقة سوبرانو بنسخة مُنقَّحة:

- أيُّها الأصدقاء، ونحن نحتفل بأرض الحبِّ الجميلة، طَرَابُلُس حُلْم الفقراء والجياع، يحضرني الآن ما قاله صديقي شاعر البروليتاريا العظيم جيوفاني باسكولي، لقد هاجر أبناء إيطاليا إلى

البلدان الباردة، عبروا البحر وجبال الألب. أصبح أبناء إيطاليا مثل الزنوج يعملون في أمريكا في أعمال شاقَّة، ونحن لدينا واحة طَرَابُلس الخصبة التي بناها أجدادنا الرومان، وهي بانتظارنا، لنُعيد مجدها القديم. طَرَابُلس كنز المحاصيل الهائلة والخصبة، إنها أرضنا الموعودة الحُبْلَى بالخيرات التي ستُحقِّق حُلْمنا المُنتظَر.

وفيما هو يتحدَّث اقتنصت النساء الفرصة لاستكشاف مجوهرات بعضهنَّ البعض، كانت رفيقة كولمبينو أرونا مُؤلِّف أوبريت طَرَابُلس تتزيَّن بعقد لؤلؤ عاجي من ستَّة أطواق متداخلة، وتضع خَاتَماً كبيراً من حجر كريم غير مُصنَّف، وتقلَّدت المرأة الجالسة ملاصقةً للشاعر جيوفاني كورفيتو مؤلِّف الأُغنيَّة، سلسالاً ذهبياً مُوشَّى بالجوهر، يتوسَّطه تمثال العذراء، فيما اكتفت جارسيندا بزينة الخواتم الثلاثة المتجاورة وإسوارة رفيعة تاركة جِيْدَها حُرَّاً وناصعاً مثل قطعة من القشدة الطازجة. جاء الجراسنة لتعديل الستائر وكَنْس غبار المِنْفَضَة، ثمَّ وضعوا جرادل الثلج، وسكبوا كؤوس الويسكي، وشيئاً فشيئاً عاد كلُّ شيء إلى طبيعته، وإن كان المطر مازال يَهطِلُ في الخارج بتدفُّق ثابت، ثمَّ بدأ يتناقص تدريجياً، لم يتحرَّك ساندرو من مكانه، حتَّى أنتِ أيَّتها السماء! غَمْغَمَ تاركاً روحه معلَّقة على سجيَّتها بين فرح لم يكتمل وخيبة ليست هي الأسوأ من نوعها على أيِّ حال، أسند رأسه على حافَّة الكرسي، واسترق النظر إلى وجه المرأة الحُلْم كيف بعد أن كانت ضرباً من خيال مستحيل يراها ماثلة

أمامه، تبتسم بدلال وتنظر إليه كأنها تعتذر له عمَّا اقترفتْهُ السماء خلال اللحظات الفائتة، عاد وفتح عينَيْه على اتِّساعهما، لم يكن حُلْماً، كانت تُحدِّق في عينَيْه بتأمُّل مستريح، كأنها نسيت نفسها على تلك الحال، أشعلت في داخله غابة من مشاعر منتفضة لا قِبَل له بها، تحوَّلت القاعة بضجيجها ودخانها وصخبها وغبار مِنْفَضَتِهَا وثرثرة شعرائها وجدال مثقَّفيها إلى عالم مُبهرَج من الفتنة، تحيط بسنيورته المحبوبة، وتساءل وهو يُربِّت على قلبه بيده: كيف يأتي الحبُّ هكذا فجأة مثل المطر؟! فأومأت له برأسها موافقة، ومُتمِّمة طقس ابتسامتها السماوية، ثمَّ التفتت لتتابع حديثاً جانبياً مع تيودور مونيتا الذي جاء برُفْقَة صديقه كورفيتو.

لا يعرف كيف شعر بعدائية مُفاجِئة تجاه ذلك الشخص الذي ملأت أخباره الصحف بعد حصوله على جائزة نوبل للسلام منذ أربع سنوات، علاقته بالاسم ليست حديثة، فمنذ أن كان تلميذاً في العاشرة من عُمُره بمدرسة سانتا كروتش في حَيِّ بورتا جينوفا، كان المُعلِّمون يُوزِّعون عليهم صحيفة أسبوعية موجَّهة للأطفال، تتحدَّث عن السلام، مُوقَّعة باسم تيودورو مونيتا، وفي وقت لاحقٍ، استوقفتْهُ مواقفه الغرائبية، كيف يُعقَل أن يشعر بالتعاطف والرحمة تجاه الأعداء النمساويِّيْن الذين احتلُّوا المُدُن الإيطالية؟! وكيف يَحدُث ذلك التبدُّل الإنساني في حياته، فيصبح مُناصِراً للحرب بعد أن كان داعية للسلام؟! لطالما تساءل عن هذا التغيير، يكرِّر مونيتا القصَّة ذاتها

على جارسيندا:

- كنتُ طفلاً في بيتنا الريفي، وكان أخوتي ووالداي غائبِيْن عندما رأيتُ من النافذة ثلاثة جنود نمساويِّيْن يسقطون وسط وابل من الرصاص، أحدهم ما يزال يحتضر وجسمه يتشنَّج بعنف، هذا المشهد جعل الدماء تتجمَّد في عروقي، وتغلَّبتُ برأفة كبيرة على شعوري، لم أعد أرى الجنود كأعداء، بل مجرَّد رجال لديهم أطفال وعائلات ينتظرونهم، تألَّمتُ لشدَّة معاناتهم، كأنني قتلتُهم بيدي، فكَّرتُ في أُسَرِهِم اللواتي ينتظرونهم، في تلك اللحظة فهمتُ قسوة الحرب ووحشيَّتها كلَّها التي تضع الناس ضدَّ بعضهم البعض.

كان مراسل صحيفة أفانتي، المتحدِّثة بصوت الاشتراكيِّيْن المناهضين للحرب، يتبادل حديثاً غير ودِّي مع الموسيقار بروليتي، لكنه قطعه وتابع باهتمام ما يقوله مونيتا، ثمَّ سأل محاوِلاً أن يتكلَّف ابتسامة تُخفِّف من قسوة كلماته:

- لكنكَ الآن تُؤيِّد الحرب، يا مونيتا، كيف يحضر شعوركَ الإنساني المتعاطف مع جنود النمسا الذين احتلُّوا بلادنا، ويغيب ذلك الشعور حين تعتدي إيطاليا على ولاية أفريقية بعيدة ومسالمة؟! أَليس في طَرَابُلُس أطفال وعائلات؟! يا لكَ من رجل متناقض، يا مونيتا!

- أووووه، كم مرَّة سأخبركم يا أصدقاء أنكم تسيئون فَهْمي؟! إن فكرة السلام مثل كلِّ شيء آخر ليست مطلقة، وأنا مواطن إيطالي، قوميٌّ مخلِص، عندما يتعلَّق الأمر بإيطاليا لا يمكنني أن

أقف على حافَّة الحياد، يجب أن أشارك في حياة بلدي وأُساهم في تحقيق تطلُّعاتها.

احتدَّ الصحفي ورفع صوته مجلجلاً، دون أن يضع في حسابه أيَّ كياسة من أجل مضيفته الحسناء، ولا لبقية النساء:

- طَرَابُلُس كما قال عنها السيناتور غايتانو سالفيميني ليست إلَّا صُندُوقاً من الرَّمْل عديم الفائدة، ليس فيها ما يستحقُّ المغامرة، إنكم تدفعون بالشباب إلى المِحْرَقَة، ليسقطوا على أسوارها كما سقط جنود النمسا أمام نافذتكَ.

أيَّده رجل خمسيني أسمر مربَّع الجسم ذو تقاطيع قاسية قال إن اسمه ماريو ويعمل مراسلاً لصحيفة لوتا دي كلاسس، كان شرس النظرات غاضباً ومُستفِزّاً، وعلى استعداد للعِرَاك بذراعَيْه في أيِّ لحظة:

- حملة مجنونة ونُوَّاب مجانين، وما ستُنفقه إيطاليا على هذه الحملة كافٍ لتطوير البنية التحتية لآلاف الأحياء الفقيرة، وبناء مشاريع للعاطلين والمهاجرين الذين يتباكى من أجلهم باسكولي.

اندسَّ ريكاردو خلف مارغريتي عندما وجَّه الرجل نظراته إلى الشبَّان الثلاثة، وفي طريقه إلى المغادرة، سحب ساندرو من ياقة قميصه وقال:

- أنتَ أيُّها الولد الأحمق، ما الذي ستجنيه من ذهابكَ إلى طَرَابُلُس؟ هه؟ صُندُوق رَمْل كبير كما قال سالفيميني، فقر ومرض وأطنان رمال لا متناهية، عودوا إلى حبيباتكم، ولا تُصدِّقوا وعود

حكومة جوليتي الكاذبة.

ما زال يذكر ذلك السؤال الذي قذفه في وجهه المراسل الأسمر الغاضب. اليوم وهو يعود من طَرَابُلُس مُثقَلاً بجراحه وخيبته وأزماته، يشيح بانكسار عمَّا جَنَتْهُ يداه، يتمنَّى لو يتوقَّف الصحفي باولو فاليرا عن تدوين حكايته، لو يطرده من مكتبه ويقول له اذهبْ لتنتحرَ بعيداً وتتوقَّف عن سرد هذا العار، راقب أصابع فاليرا وهي تتقدَّم فوق السطور تاركة خلفها نهراً من الدم، له رائحة حَيّ المَنْشِيَّة في ذلك اليوم الأسود، هاجمتْهُ على الفور ذكرى (حليمة) وصرخاتها المستغيثة وهو يسحبها باتِّجاه الشاحنة، حُمَّى أنفاسها وهي تلفح وجهه حين كان يجرُّها على الرَّمْل، صلابة خصرها وهي تحاول الافتكاك من قبضة ذراعَيْه، الشهقات والصرخات والشتائم التي لا يفهمها جميعها أحاطت به في هذه اللحظة لتعلوَ ذِكْراها على ضجيج نابولي الرنَّان، شعر برغبة في الفِرَار والقفز من سياج الشرفة، وكان يعرف مثلما فاليرا يعرف أنه لا بدَّ أن يُكمِلَ سرد حكايته، ليقينهما بأن التوقُّف الآن لا يعني أن نهر الدم سيُحوِّل جريانه عن المَصَبِّ.

امتقع وجه جارسيندا، وانطفأت عنها هالة العنفوان المثير، نهض بروليتي مقرِّراً المغادرة، كانت قد زادت ارتعاشة يدَيْه، لتشمل جسده كلَّه، وسقطت من جيبه الساعة المعلَّقة بسلسال فضِّيٍّ، شهقت النساء بصوت مسموع، فذلك نذير شُؤم يُنبِئ بموته الوشيك، شعرت جارسيندا بالندم على دعوته، وتمنَّى ساندرو لو يتوقَّف

الحديث المُمِلّ، ويغادر الرجال الحمقى المتناقرون كلُّهم كالدِّيَكَة الذين أفسدوا حفل محبوبته، لكنهم غادروا على أيِّ حال، ولم يبقَ إلَّا ألبرتيني الذي سيُقيم ليلته بالفندق، كان يجلس على جانب أريكة الجِلْد ويُدخِّن سيجارته نافثاً سحائب كبيرة من الدخان، وينظر باتِّجاه الشبَّان مُنتظِراً مغادرتهم، لينفرد بكأس أخيرة مع جارسيندا، لكنها أشارت بيدها إلى ساندرو للجلوس في المَقْعَد الشاغر القريب منها، وقالت:

- لا تستمعْ إلى ماريو، إنه غريب الأطوار.

قال بنبرة واثقة:

- لن أستمع إليه. بل سأحضر تريبوليتانيا كلَّها، لتمثلَ صاغرة بين يدَيْكِ.

بدا لها أنه غير واعٍ لِمَا يقوله، واستبعدت فكرة أن يكون مجنوناً، لكنها أومأت برأسها لمَّا رأت الكأس الفارغة في يده.

4

في الساعة السابعة صباحاً وحيث كانت الشمس تصارِع ضباب أواخر سبتمبر، وينعق إِوَزٌّ منتوفٌ فوق الجسر الخشبي القديم الذي يربط ضفَّتَي الساقية المتفرِّعة من نهر البو، يُصفِّر من بعيد القطار الذي سار طَوَالَ الليل، وجاء ليُوقِظَ سكَّان حَيٍّ بورتا جينوفا، إنه قطار الجنوب، الذي سيَؤوب في التاسعة بركَّاب آخرين، بعضهم قد تكون رحلتهم الأخيرة في الحياة.

استيقظت ماريا بالزوني بعينَيْن مُتورِّمَتَيْن إثر بكاء طويل، لم تحاول إخفاءهما عن ساندرو الذي كان يُجهِّز حقيبته، ليستقلَّ قطار الجنوب مع رفاقه إلى نابولي، حيث ترسو السفن الحربية التي ستُبحِرُ إلى طَرَابُلُس، لم يتحدَّثا بشيء، فقد انكبَّت على إعداد شطائر من الخبز كانت قد خَبَزَتْها في الفرن الحجري خلال الليلة الفائتة زاداً لرحلته، راقبها وهي تنحني على الطبق الكبير الموضوع على المنضدة، تقسم الخبز إلى شرائح متساوية، وتدهنها بالجبن المخلوط بالزعتر والثوم وزيت الأرغانو، تُطلِق تنهيدة حزينة، وتمضي متثاقلة باتِّجاه الموقد، تُسخِّن خرقة قماش على البخار، ثمَّ تعود بها إلى الطبق على المنضدة، فتجمع فيها الشرائح وتدعكُها لتتماسكَ ويذوبَ جبنها في طيَّات الخبز، لطالما أحبَّ أولادها هذه الوجبة منذ طفولتهم الباكرة، وتسابقوا إلى حَلِّ لِفَافَة القماش الساخنة والتهام الخبز الذي اكتسب طراوة مُشبَعَة بنكهة الثوم والزعتر.

لا مناص، لقد أصبحت هذه الشطائر وجبةً

للوداع، فقد خبزت في صباح شتوي قبل سبعة أعوام لِفَافَةً مماثلة، دسَّتْها في حقيبة أرتورو حين شدَّ الرِّحَال مُهاجِراً إلى أمريكا، شأن آلاف الشبَّان الفقراء الذي أجبرتْهم ظروف البطالة والفقر على الهجرة، لم يحظَ أرتورو بقسط تعليم مناسب، لكنه قوي بما يكفي لكي يعمل في أيِّ مهنة شاقَّة، ما إن بلغ الخامسة عشرة أدرك أن تعليمه مَضيَعَة للوقت وعبءٌ يُثقِل كاهل الأسرة الفقيرة، حينها كانت كاثرينا تقترب من سِنِّ الصبا، هيفاء بعينَيْن مُشِعَّتَيْن، وشعر كأنه ليل طاعن في ظُلمته، كانت تتأمَّل صورتها في شظية المرآة الصغيرة على الجدار، وتحلم بصَخَب المراهقات اللاتي يملكنَ ثياباً جميلة تثير الإعجاب، يومها قرَّر أرتورو أن يحمل مئة كيس إسمنت من الميناء إلى طريق الجسر، ليُوفِّر لكاثرينا ثمن فستان ترتديه في الحفلة الراقصة بمدرسة سانتا كروتش، ارتدت الفستان مثل أميرة حقيقية، ورقصت حتَّى تورَّمت قدماها، وحَلَّت ضفيرتَيْها لتُعلن أنها بلغت طَوْر الأنوثة الناضجة، ظلَّت ماريا تبكي في سنوات لاحقة كلَّما شاهدت فتاة يافعة تَفُكُّ ضفائرها لتُعلنَ أنها بلغت طَوْر الأنوثة، ففي اليوم الذي عادت كاثرينا من حفلتها الراقصة، لم تستطع أن تثرثر بحكاياتها عن الحفل، كانت ترتجف من تقلُّصات في بطنها، فاستلقت على سريرها دون أن تنزع الفستان وقد جمعت طيَّات الكربالات بين ركبتَيْها حتَّى لا تنزعه عنها الأُمُّ في أثناء نومها، استيقظت بعد قليل، لتنخرط في دوَّامة من القيء وانفجرت سوائل كريهة الرائحة من بين ساقَيْها، لم تستطع التحكُّم بها،

فوسَّخت الفستان والشراشف، وما لبثت أن غابت عن الوعي. عندما تحسَّست الأُمُّ يدَيْها وقَدَمَيْها وجدتْها كقطعة من الثلج، نادت على باتشي الذي كان يحلِق وجهه أمام شظية المرآة على الجدار، جاء مُهرولاً بوجه مخفوق تحت رغوة الصابون، طلبت منه أن يُخرِج الولدَيْن من الغرفة قبل أن تصيبَهما العدوى، وبات من الواجب التعايش مع المحنة بواقعية، ففي ذلك العام هاجمت الكوليرا جنوب فرنسا وبعض مُدُن لومبارديا في الشَّمَال الإيطالي. وتفاقم الأمر في ميلانو، بسبب طرح مياه الصرف الصحِّي عبر القنوات المائية، وكانت سواقي حَيّ بورتا جينوفا تزداد قذارة كلَّ يوم، حيث تتجمَّع فيها مُخلَّفات المسالخ وأسواق الخضار، من الدماء والرَّوْث والأحشاء ورؤوس السمك وبقايا الخضار المتعفِّنة، وتُفرِّخ فيها مستعمرات البعوض والذباب والدود والجِرْذَان. في تلك الليلة خرجت ماريا عن طَوْعها، وصرخت في باتشي:

لو أنكَ اهتممتَ بإيجاد عمل مربح يوفِّر لنا بيتاً في مكان نظيف، لكان أفضل من وَهْم إصلاح الحكومة.

لطالما تذمَّرت من انشغال زوجها في اجتماعات حزب العمَّال والاحتجاجات التي تراها بلا طائل، وزاد من تذمُّرها لقاءاته المكشوفة والسرِّيَّة مع بربارة بائعة الجبن، ولو أنه ظلَّ يُقنِعُها على الدوام أنها في نطاق العمل الحزبي لنصرة البروليتاريا الوطنية، تشاجرت معه عشرات المرَّات مُطالِبَةً أن يقطع صِلته بها وبالأنشطة الحزبية

المزعومة كلِّها، كان قد وقَّع مع آلاف السكَّان على التماس للحكومة لوضع حلول قبل أن يحلَّ وباء الكوليرا الذي كان يحوم في الجوار، وهتف في احتجاجات شعبية أنه من العار بعد نصف قرن من استقلال إيطاليا ما زالت هنالك ثمانية آلاف بلدية يتبرَّز سكَّانها في العراء. وانهمك مع أنصار حزب توراتي في حملة تحريض سرِّيَّة ضدَّ اليمين المحافظ، ووزَّعوا في الخفاء منشورات تقول: إيطاليا الاستعمَّارية بلا خبز ولا أطبَّاء ولا مياه شرب ولا مجاري، كان ذلك لمَّا تجاوز الإنفاق الحكومي على التسلُّح مجموع ما يُنفَق على التعليم والصحَّة والاقتصاد والزراعة والخدمات.

في الصباح الباكر أحضر باتشي طبيباً طاعناً في السنِّ، اكتفى بسنتيمات قليلة، ولمَّا انحنى محاوِلاً تحريك الفتاة كانت أمعاؤها تتفسَّخ على ثيابها في سوائل خضراء برائحة السمك المتعفِّن، قال من غير عناء، إنها فتاة محظوظة، فهي ستغادر باكراً بدون ألم إضافي.

ما زال ذلك المشهد ماثلاً أمام عينَي ماريا التي لم تعد تحتمل وداعاً جديداً، جاء باتشي يصطحب كاهناً يحمل معه وعاء القربان المقدَّس، وسأل إن كانت الفتاة قد تمَّ تعميدها، أخبره باتشي بوقار مرتبك أنه عمَّد أبناءه جميعهم في كنيسة القدِّيس لورينزو، كان أرتورو يشهق ببكاء مروِّع، وساندرو يختبئ خلفه كأرنب مذعور، والكاهن يقف عند رأسها ويقرأ صلاة المناوَلَة الأخيرة، لوَهْلَة فتحت عينَيْها بطريقة مريبة، باحثة عن شيء ما في الجوار، وأطلقت أنيناً متقطِّعاً ذائباً

في الحشرجة الأخيرة، ثمَّ ابتسمت مُبجِّلة موتها الرحيم.

لم يعد هنالك عزاء لوداع جديد قالت ماريا باكية وهي تحتضن آخر الأبناء، أراد أن يواسيَها، فاكتشف أنه ليس ضالعاً في انتقاء الكلمات، كما اكتشف في وقت لاحق أنه ليس ضالعاً في انتقاء المشاعر أيضاً. لكنه ودَّعها، واقترف حماقة بالغة حين قال: سنُحرِّر طَرَابُلُس، ونعود قريباً جدّاً.

لقد سار كلُّ شيء بسرعة مُرعِبة، وحتَّى عندما انزلقت السفينة الحربية التي تحمل اسم الملك إمبيرتو، من ميناء نابولي وشقَّت عباب البحر المتوسِّط باتِّجاه طَرَابُلُس في الحادي والعشرين من سبتمبر 1911، لم يكن ساندرو مُصدِّقاً ما يَحدُث. ولوَهْلَة بدا له أنه تعرَّض لخديعة كبرى، إذ إنه لم يرسم في مخيِّلته في أيِّ يوم من الأيَّام أن يرحل في حملة عسكرية عبر البحار، ليشارك في حرب! لقد حدث كلُّ شيء هكذا بلا ترتيب، شعر كم هو بائس وضعيف أمام أخطر الحوادث التي قرَّرتْها الحياة مُسبَّقاً، وآن أوان تنفيذها، ولاح في الأُفق الصباحي الغائم طيف جيا جارسيندا تنظر إليه دون أن تُلوِّح بيدها أو تبتسم، وخالها تتمطَّى في فراشها تدهن الزُّبْد على قطعة الخبز الطَّرِيَّة، وتلتهمها بأمان قطَّة مُدلَّلة، كان سيُبحر على أيِّ حال، حتَّى قبل أن تقول له إنها تُعلِّق آمالها عليه، بل قالت آمال الأُمَّة الإيطالية، استدرك مُصحِّحاً دون تأنيب ضمير، فلا بدَّ أن تُغلِّف امرأة استثنائية مثلها مشاعرها الحميمية بعبارات الكياسة، أمَّا هو، عليه فقط أن

يقرأ اللمعان المثير في عينَيْها اللتَيْن أفصحتا عن شوقها العارم. كان سيُبحر، حتَّى قبل أن تضغط بشفتيها على شفتَيْه في قبلة الوداع، وتُلَمْلِمَ خيوط روحه، ثمَّ تُرسلَها مثل كائن فاتن عجيب، جيا التي ظهرت قبل موعد الرحيل بأيَّام جاءت لتُضيف إلى رحلته شيئاً غير مفهوم، شيئاً ممتعاً كقطعة ثلج في شراب فاخر، أو نوتة متودِّدة في سيرناد عاشق، وعندما استعاد في لمحة سريعة شريط حياته قبل أن يلتقيَها هاله كم كان باهتاً وكئيباً ومُثقَلاً بالخيبات والفَقْد والأحزان، تمنَّى في تلك اللحظة أن تنتهي الحرب سريعاً، بلا دماء، مثل نزهة بحرية صغيرة وقصيرة جدًّا، لكن الحرب ما زالت مستعرة، وهو ما زال يسرد حكايته لباولو فاليرا الذي يُشاطِرُهُ الأسف والخيبة والارتهان لحماقة المغامرة، ولا شيء يلوح أمام ناظرَيْه سوى صورة حليمة، فتاة حَيّ المَنْشِيَّة المضرَّجة بالدم، وهو يُجرجرها على الرَّمْل مثل شاة في طريقها إلى المذبح.

كان الجنود ما زالوا يُلوِّحون بأيديهم إلى أهاليهم الذين يهتفون بأسمائهم من على رصيف الميناء، ولكي يكبح الضبَّاط موجة البكاء التي انخرط فيها الجنود بمجرَّد أن تباعدت أصوات الأهالي، أصدروا الأوامر بأداء أُغنيَّة تريبولي بيل سول دامور. وتركوهم يردِّدون الأُغنيَّة طَوَالَ الصباح حتَّى بُحَّت أصواتهم، وتحوَّلت إلى ما يشبه كورال جنائزي عشية عيد العَنْصَرَة، سَرَت في أوصاله رَعْدَة من البرد، واقشعرَّ ذَقْنُهُ بنتوءات صغيرة تحت الشُّعيرات التي نَمَتْ حديثاً، شدَّ ياقة

السترة العسكرية إلى الأعلى، وأدار وجهه عن الريح وهي تصفع العَلَمَ الإيطالي الكبير في أعلى الصاري صفعات قوية متلاحقة.

بعد وقت غير قليل صَعِدَ إلى السطح قائد السفينة رافائيل ريتشي، كان يتحدَّث إلى مساعده، ويتلمَّس بسبَّابته شاربَهُ الكَثَّ المُثبَّت بالشمع ولحيته الكثيفة على وجهه الخمسيني، ويطلب منه توزيع المنشورات على الجنود مشيراً بالعصا الرفيعة في يده إلى زوايا السفينة، عاقداً حاجبَيْه بصرامة كلَّما اقترب من تجمُّعات الجنود، انهالت أوراق المنشورات على الأرضية، وانحنى الجنود لالتقاطها، وأصبح على ساندرو أن يقرأ ما كُتب فيها على ثلاثين جندياً أُمِّيَّاً، معظمهم جاء من باليرمو وأوغستا وسيراكيوز ومُدُن أخرى في الجنوب. وقف على منصَّة خشبية مرتفعة قليلاً، وقرأ بصوت عالٍ:

«السكَّان الأصليون في طَرَابُلُس يجب معاملتهم برِفْق مثل الأطفال، ولكنْ، أيضاً يتمُّ تصحيحهم بحزم، كنْ مستعدَّاً دائماً للخطر، ويجب المحافظة على احترام اسم إيطاليا والخوف منها. عليكَ أن تأخذ في الحُسْبَان أن الهيبة أهمُّ من القوَّة، فالهيبة أكثر فاعلية وأقلُّ تكلفة في الحماية، وإذا فَقَدْتَ الهيبةَ، فإن استعادتها ستُكلِّفكَ الكثير، كما إنه من الضروري مراعاة معتقداتهم الدينية، وعدم إعاقة عبادتهم أو نسائهم، لأن التعرُّض للدِّيْن أو النساء سيؤدِّي إلى ردِّ فعل خطير، سيُكلِّفنا الكثير لتجاوُزه».

قاطعه جندي صِقِلِّيٌّ مفتول العضلات مُخضَّب

بالوشم على ذراعَيْه وعُنقه وسأل:

نعاملهم كالأطفال! هلّا تُوضِّح؟

لا أعرف، أستطيع فقط مساعدتكَ على القراءة.

إنكَ شَمَاليٌّ متغطرس.

لم تكن لديه رغبة في الانجرار إلى العِرَاك، كان دائماً يعاني من تجربة الاعتقاد بأن الشخص الذي تراه للمرَّة الأولى لا بدَّ أن يكون خصماً، ولا يمكن أن يكون صديقاً على الإطلاق، كما إن تجاربه القديمة في اصطفافات سكَّان الشَّمَال والجنوب غير سارَّة، وما زال يذكر المعسكر الترفيهي الذي أقامتْهُ المديرية المركزية للشؤون الاستعمَّارية في روما، ودعت إليه الفِرَق الرياضية التابعة للفيالق العسكرية من المحافظات الإيطالية جميعها، كيف تحوَّل عنبر الطعام في اليوم الأوَّل إلى منصَّة للمشاحنات، بعد مشاجرة بين لاعب من صِقِلِّيَة وآخر من توسكانة، وكيف اصطفَّت فِرَق اللومبارد وليغوريا وفيرونا وتورينو مع التوسكان، وتحالفت فِرَق سردينيا وسيراكيوز وتريميتي مع الصِّقِلِّيِّيْن، وكيف اتَّهم الجنوبيون حلفَ الشَّمَال بالاستحواذ على الموارد تاركين أبناء الجنوب يعانون الفقر والجهل والتهميش، فيما يردُّ الشَّمَاليون بأن التنمية تُدار برؤوس أموالهم التي تُحرِّك عجلة الاقتصاد، يتصاعد الخطاب إلى أعلى مستوياته، ليتحوَّل إلى عِراك عنيف، لم يكن هنالك من سبيل لإخماده إلَّا بإطلاق الرصاص في الهواء، ثمَّ اعتقال المتشاجرين، وإيداعهم الحَبْس، وإرسال الآخرين إلى معسكراتهم قبل حلول المساء.

انتهى ساندرو من قراءة المنشور، واستدار باحثاً عن ريكاردو، إذْ هو الآخر ينحني بقامته القصيرة الممتلئة، يقرأ لمجموعة اقتعدوا على الأرض، وبدوا منصتِيْن باهتمام، فهو لم يكتفِ بالقراءة فحسب، بل تطوَّع بتقديم وعود متضخِّمة، ألهبت مشاعر الجنود:

السكَّان الأصليون ينتظروننا بأذرع مفتوحة، لقد أعدُّوا الأعلام لاستقبالنا، أمَّا الغضب كلّ الغضب، فهو على الأتراك المتوحِّشين الذين رفضوا استخدام العقل، وجرُّوا أنفسهم في حماقة عالمية.

يصيح الجنود مُهلِّلين في حماسة:

مجانين. مجانين. مجانين.

في وقت الظهيرة كان الجوُّ في الطبقات السفلى من السفينة خانقاً ودَبِقاً من رطوبة البحر ما اضطرَّ الجنود إلى خَلْع السترات العسكرية ذات اللون الرمادي المخضرِّ، والتسكُّع بين المهاجع بالملابس الداخلية، تلك السترات هي الزِّيُّ الجديد الذي اختارتْهُ قيادة الجيش الإيطالي لمنتسبيها لتسهيل التمويه في الإقليم الصحراوي عوضاً عن الزِّيِّ الأحمر الذي ظلَّ سائداً طيلة الحروب السابقة. في تلك الأثناء انطلقت صَفَّارَات الإنذار ونداءات فِرَق المراقبة تُنبِئ بظهور سفينة غامضة في الجوار، وجَّه الضبَّاط الأوامر إلى الجنود بارتداء ثيابهم والصعود إلى السطح، والالتزام بالتعليمات التي ستصدر خلال الساعة القادمة بمجرَّد التحقُّق من هوية السفينة التي تبدو مثل بقعة سوداء

كبيرة في عرض البحر، تحمل العَلَمَ الألماني، وتُبحر بسرعة ثلاث وعشرين عقدة في اتِّجاه الجنوب. توجَّه سلاح المدفعية إلى أماكنهم، وطُلب من جنود المشاة إخلاء السطح، والعودة إلى المهاجع تحسُّباً لأيِّ ضربات مدفعية.

اتَّجه مارغريتي مع فرقته إلى منصَّة التلغراف، لينشغل طيلة النهار بإرسال واستلام الإشارات اللاسلكية التي تتمُّ بين قِطَع الأسطول، عاد ساندرو وريكاردو وآخرون إلى الغرف، ساد صمت مشوب بقلق، وجاءت التعليمات من قائد الحملة الجنرال كارلو كانيفا إلى الطَّرَادَات وقِطَع الأسطول جميعها بالتزام الحَذَر إلى حين معرفة هوية السفينة التي تحوم وحيدة بالقرب من الأسطول، بدا الأمر مُرِبكاً حتَّى للجنود الذين شاركوا في حرب أثيوبيا في العقد المنصرم، إذ إن ظهور طرف ثالث في الحرب بين طرفَيْن هو إخلال خطير بالموازين المتوقَّعة، ولا أحد يتمنَّى أن تتورَّط روما في مصادمات مع برلين التي تتَّكئ على جيش من نصف مليون حربة، تحدَّث الجنود القدامى عن الغموض المعتاد في مواقف ألمانيا، وأطلقوا ما استطاعوا من الشتائم على الألمان الذين لا يمكن أن يُؤمَن جانبهم، قال الجندي الأربعيني الذي سقطت ثلاثة من أسنانه الأمامية إن اسطنبول ترتمي في حِضْن الرايخ، قال ذلك بإشارة وقحة بأصابع يدَيْه، مذكِّراً بأن برلمان الرايخسنباغ في برلين قد دعم الانقلاب الدستوري التركي قبل ثلاثة أعوام طَمَعاً في جُزُر البلقان، وفَتَحَ مخازن الأسلحة، لتتدفَّق إلى اسطنبول.

انشغل ساندرو بتصفُّح أكوام الصحف التي وُضعت على أرفف معلَّقة في العنابر مديراً ظهره لضجيج الجنود والذباب الذي تسلَّل من المرفأ، والزعيق الذي يأتي من أماكن غير مَرئيَّة، شعر بمدى خوفه وتوحُّده وهدوئه المثير للضجر، وخشي في تلك اللحظة أن يكون في حُلْم غريب، بل تمنَّى أن يكون حقَّاً في حُلْم مهما كانت غرابته، فهو لم يستعدّ كما ينبغي ليصبح مقاتلاً، ولم يسبق له أن أطلق النار إلَّا في تمارين المحاكاة، ولا يعرف ماذا عليه أن يفعل إذا تبادلت السفن إطلاق القذائف في عرض البحر، لقد نسي أن يفكِّر في ذلك حين كان يُحضِّر نفسه للرحلة التي أخبروه أنها نزهة بحرية، دفن وجهه في صحيفة ليديا ناسيونالي التي كان يَهِشُّ بها أحدُهم الذبابَ، نزع أحشاء ذبابة منتحرة على مقال بصفحتها الأولى للسيناتور أنريكو كوارديني، لوَهْلَة بدا له أنه أمام مقطع من رواية خرافية: واحة طَرَابُلُس اليانعة، المترعة بجمال الطبيعة الساحر، المياه المتدفِّقة بين السهول الخضراء، السنابل الذهبية تحت الشمس الصافية، الخيرات الوفيرة التي تكفي الجميع، يتلاعب كواارديني بالسرد، يعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد، يذكِّر الأُمَّة الإيطالية بأمجاد روما القديمة وخيرات ليبيا من القمح والشعير وزيت الزيتون والحمضيات، يستحضر بلا رادع أخلاقي السفن الضخمة التي تحمل المنتجات من الشواطئ الليبية إلى روما العظيمة، كلَّ يوم، نعم كلَّ يوم، ثمَّ يتساءل في آخر المقال ببراءة هَشَّة من تحت أحشاء الذبابة المسلوخة: كيف تترك إيطاليا هذا كلَّه إلى

الأتراك المتخلِّفين، إلى دولة الرجل المريض التي تستحوذ على الخيرات وتُذِلُّ السكَّان الأصليِّيْن المسالمين؟ كما احتشدت في الصحيفة مقالات أخرى وقصائد وتحليلات شارك فيها صحفيون صغار وسياسيون ونقابيون وكتَّاب كبار: جيوفاني باسكولي وغابرييل دانونسيو وأدا نيغري، جميعها تصف النعيم الأرضي الذي سيَحُلُّ مشاكل الهجرة والبطالة والفقر واسترجاع الأمجاد الإيطالية العظيمة. تساءل كيف لم يُتَح له الوقت قبل الآن لكي يفكِّر في السكَّان الأصليِّيْن؟! مَنْ هم؟! وكيف يفكِّرون؟! كيف يأكلون ويشربون وينامون؟! ولماذا يجب أن نعاملَهم كالأطفال؟! كيف هُنَّ نساؤهم وصلواتهم وأنماط حيواتهم؟! كان الخاطر مُفاجِئاً وغريباً ومزعجاً ومُلِحّاً ومُحِيْلاً إلى قلق غامض، وفي غمرة الهَرْج والضجيج ورائحة العَرَق الحامضة في المهاجع المغلقة في الطابق الأوَّل تحت السطح، سأل ثلاثة من الجنود يقاومون الإصابة بدُوَار البحر: هل من أحد منكم يعرف أيَّ شيء عن السكَّان الأصليِّيْن؟ أجابه الأوَّل: إنهم الأشخاص الذين يَبغُضُون الأتراك، وسوف يعانقوننا عندما نصل إليهم.

قال الآخر: يقال إنهم أشخاص بشعون، لهم وجوه طويلة جدّاً، تشبه وجوه الكلاب.

عندها صاح الأخير: تبّاً للسماء! هل ستعانقنا الكلاب؟!

في ذلك الوقت كان ما يزال مُمتنّاً لصحيفة كورييري التي نشر فيها أولى تقاريره كمتدرِّب صحفي، تذكَّر كيف ألحَّ عليه ألبرتيني، كي يأتي

لمقابلته قبل إبحاره إلى طَرَابُلُس، حدث ذلك في صباح اليوم التالي من لقائهما في فندق أوستريا ديلا دوجانا نوفا وقد تناولا معاً طعام الإفطار مسترقين النظر إلى السُّلَّم بانتظار جارسيندا التي تأخَّرت في وَضْع مساحيقها الصباحية، عرض عليه أن يُوقِّع معه عقد عمل كمراسل أخبار من خطِّ النار لمَّا علم أنه سيُبحِر ضمن جنود الحملة العسكرية إلى طَرَابُلُس، انتهت إجراءات التوقيع ببساطة، واستلم مقدَّماً جزءاً من المكافأة على أن تُرسَل باقي أتعابه إلى والدته لتُعالِجَ داء الدوالي والربو واحتكاك الركبَتَيْن، في ذلك اليوم التقى أيضاً ببارزيني في مقرِّ الصحيفة، وعلى الرَّغْم من أنه سبق لهما اللقاء في مناسبات عديدة، لكنها المرَّة الأولى التي يراه وقد ذهبت آخر شَعْرة من رأسه، ليتحوَّل إلى كتلة بيضاء كالعجين، أخبره أنه سيكون مراسل كورييري الرسمي مع الفِرَق الدولية الموجودة في طَرَابُلُس، لكنه سيحتاج إلى تفاصيل أكثر دقَّة من مصدر مُطَّلع كما يُسمَّى في لغة الصحافة، وهنالك في المقرِّ أيضاً فتاة ثلاثينية تجلس على المَقْعَد المقابل لطاولة المكتب وقد وُضع أمامها كأس من عصير البرتقال، اكتفت بملامسة قاعدته دون أن تحتسيَ منه شيئاً، قدَّمها ألبرتيني إلى ساندرو:

الآنسة كريستين، مراسلتنا في مقرِّ البرلمان، هي من أنصار المستقبليَّة، وتُعدُّ الدراسة العليا في قصائد مارينيتي، سيكون أمامكما الكثير من العمل المشترك.

ابتسمت الفتاة من دون حماسة، وعادت لتلتقط

ورقة من فوق الطاولة كانت تشير إلى شيء ما بين سطورها، لكن ألبرتيني لم يكترث وجذب الورقة باتِّجاهه، وأضاف:

نحن محظوظون أن ينضمَّ ساندرو إلى طاقم الصحيفة، ليس سهلاً أن يعمل معكِ مصدر من خطِّ النار.

نظرت الفتاة إلى أناقته بشيء من الخيبة، كأنها تتوقَّع رجلاً أكثر فوضاوية بالنسبة إلى كاتب صحفي، وعادت تقرأ من الورقة تعليقاً من البرلمان حول خبر نشرتْهُ صحيفة جورنال إيطاليا المتحدِّثة بصوت الحكومة، حول الطَّرَّاد بانثر الألماني الذي يرسو قُبَالَة شواطئ أغادير في المحيط الأطلسي، ثمَّ قرأت عنواناً بالبنط العريض في صحيفة لا بروباقاندا النابولية يقول: «إذا أرادت البرجوازية المحلِّيَّة إثبات كرامة إيطاليا، عليها أن تشنَّ حرباً على النمسا التي أساءت إلى كرامتنا الوطنية آلاف المرَّات».

تطلَّع ساندرو إلى معطفها الرمادي الذي يشبه مسوح الراهبات، وضفيرة شَعْرها الحمراء الطويلة الملقاة على ظهرها بصلابة حبل متين، وراقب نبرة صوتها التي تأتي خلافاً لمظهرها الخانع، قوية وواثقة مثل سيِّدة أرستقراطية تُملي تعليماتها إلى عبيد فقراء، وشعر أنه للمرَّة الأولى يقف وجهاً لوجه مع نموذج حقيقي للحركة المستقبليَّة بفوضاها واندفاعها وتشويشها وميلها العنيف للحرب وسحق المثاليات، وباغته في اللحظة ذاتها الدُّوَار النجمي الذي أوقعه أرضاً في اليوم الذي اهتزَّت

فيه شوارع ميلانو تحت أقدام المستقبليِّيْن ذوي السراويل المجنَّحة والشُّعُور الطويلة المُهمَلَة يطلقون صيحاتهم: «هَلُمُّوا، يا مُضرِمِي الحرائق، أَشْعِلُوا النيران في المكتبات، وحَوِّلوا مياه الفيضان إلى المتاحف، ودعوا الآيات الشهيرة تطفو، إننا لنتحدَّى نجوم السماء»، وكان حتَّى تلك اللحظة يحاول أن ينفيَ العلاقة بين شعار المستقبليِّيْن وهيئة الفتاة الخالية من أيِّ أنوثة مُحتَمَلَة، إلى أن سمعها وهي تتحدَّث مع ألبرتيني باعتداد، وتناقش كسياسي متمرِّس، أفضال الحرب القادمة في تطهير العالم من دولة الرجل المريض(3)، وتسرد في حديثها تفاصيل الاتِّفاقية السرِّيَّة التي وقَّعتْها ألمانيا مع جوليتي، وحين قال بارزيني إن الطَّرَّاد بانثر الذي يقف منذ أيَّام قُبَالَة شاطئ أغادير سيُهدِّد بأزمة كبيرة بين ألمانيا وفرنسا، ويصبح شَمَال أفريقيا جبهة حارقة في كلِّ جزء منها، عدَّلت من الإطار الرديء لنظَّارتها السميكة، وأطلقت هَمْهَمَة ذكورية، أثارت انتباه الرجال الثلاثة، ثمَّ قالت:

سوف يركض جوليتي إلى شواطئ ليبيا خلال أيَّام قليلة تحسُّباً من أن تسبقَهُ ألمانيا إليها.

***

عاد للإنصات إلى الجنود، الذين تناقلوا ما ذكرتْهُ الصحف الإيطالية حول الطَّرَّاد بانثر مؤكِّدين أنه يقوم بجولة لاستفزاز فرنسا قُبَالَة سواحل تونس، وكان هناك ضابط يُعلِّق ثلاث ميداليات شجاعة على جيب سترته الأيسر، قال إن فرنسا دنَّست شرف الإمبراطور غيلليوم الثاني، وصفعتْهُ على

مؤخِّرته، حيث لم تُبقِ له على أيٍّ مستعمرة في الأراضي الأفريقية، عدا قطعة صغيرة في الكونغو، وإنه لن يسكتَ لهذا الإذلال، وقد سبق وأن أرسل الطَّرَّاد برلين ليرسوَ قُبَالَة أغادير لمدَّة ثلاثة أشهر، قال جندي متحمِّس ويعاني من سوء التغذية، إن والده سمع الإمبراطور غيلليوم الثاني (شخصياً) يقول: «يجب أن تكون هناك دائماً سفينة ألمانية قُبَالَة أغادير».

بعد أقلّ من ساعتَيْن ازداد الأمر غموضاً، إذْ كشفت المراسلات التي أجرتْها قيادة الأسطول مع روما وبرلين أن السفينة التي تحمل العَلَمَ الألماني وتُبحر قريباً منهم ليست بانثر المثيرة للجدل، بل سفينة تركية اسمها (أَدَرْنَة) تحمل أسلحة ومُعَدَّات حربية إلى طَرَابُلُس، جاءت التعليمات من جوليتي بعدم التعرُّض لها، ما أثار استياء الجنود الذين رأوا فيها مُسوِّغاً للتسلية بإطلاق القذائف، لكن رافائيل الذي ينفِّذ التعليمات بدقَّة قال إن الحرب مع الأتراك بعد أن تصلهم الأسلحة ستكون أكثر متعة.

(3) اللقب الذي اشتُهرت به الدولة العثمانية منذ منتصف القرن التاسع عشر، إشارة إلى الهزائم التي تكبَّدتْها من الدول الأوربية.

5

في الخامسة صباحاً أطلقت السفينة زعيقاً كريهاً، وسمع ساندرو صوت الموج وهو يضرب جِذْعها، فيَصدر عنها أنين مكتوم مثل نَهِيْم حوت يُحتَضَر. لقد حلَّ الصباح الموعود، وأصبح الأسطول على بُعْد ستَّة أميال من الشاطئ، وعندما تشرق الشمس، ستبدو واحة طَرَابُلُس واضحة على مَرمَى البصر، قال آمر السريَّة الضابط شافيز وهو يَرْكُلُ الجنود النائمين بقَدَم الحذاء الطويل، فتدافعوا يُلَمْلِمُون ستراتهم وسراويلهم وجواربهم وفُوَطهم، وتزاحموا باتِّجاه المرافق الصحِّية.

من عنبر الطعام تفوح الرائحة المُمِلَّة للبيض المسلوق، والتبغ الرخيص يفتتح به الجنود صباحهم قبل الانصياع لأمر الضبَّاط والصعود إلى السطح للاصطفاف وتلقِّي التعليمات. بدا السطح مثل ساحة معركة، لا ينقصها إلَّا القتلى، همس ريكاردو لساندرو الذي كان يسير بجواره، لتصطدم عيناه بالمنصَّات المُدجَّجة بالمدافع وصناديق الذخيرة، وأَسِرَّة المستشفى الحربي التي فقأت فجأة كالفِطْر في مُؤخِّرة السفينة، الأطبَّاء مُتأهِّبون بمآزرهم البيضاء، النقَّالات جاهزة في المقدِّمة، الأدوات الجراحية تصطفُّ على الطاولة، الرائحة، أو بالأحرى الرائحة الكريهة لحمض الفينيك، اليودوفورم، سنضع الموتى هنا، ويمكن نَقْل الجرحى هناك، كان صوت الضابط وهو يتحدَّث مع الأطبَّاء، لقد قال الموتى، صاح ساندرو وهو يمسك بذراع ريكاردو: هل سمعتَ؟ ماذا يَحدُث

هنا؟ كانت نظراته ذاهلة، وأطرافه ترتجف، شيئاً فشيئاً بدا يشعر بالدُّوَار، ثمَّ ارتطم بكامل جسده على الأرض.

سأله الممرِّض الثلاثيني ذو الشَّعْر السِّنْجَابِي متعجِّباً بعد أن أفاق من إغماءته، كيف يمكن أن تصاب بدُوار البحر بعد سبعة أيَّام من الإبحار؟ لم يُجِب بشيء وتمنَّى أن يكون حقَّاً مصاباً بدُوار البحر، فهو يكره أن يموت من شدَّة الخوف، حتَّى أكثر الجبناء جُبناً لا يموتون من الخوف، إنه فقط يكره أن يموت في المكان الخطأ، قال لنفسه مُصحِّحاً.

في الليل، وهو مضطجع على السرير الحديدي، ويرفع ساقه متعامدة على الساق الأخرى، ويتأمَّل السقف المظلم بلا اهتمام، كان ريكاردو في سريره المحاذي يُدخِّن سيجارة بالمقلوب، يَمُجُّ الدخان من الجزء المشتعل مُغافِلاً الضابط المشرف على المهاجع، ويُدَنْدِن بأُغنيَّة حزينة، إنه فأل سيِّئ، تمتم ساندرو ساخراً، ثمَّ سأله:

ما بكَ؟

لا شيء، أشعر بالسأم.

أمرٌ لافتٌ حقَّاً!

ثمانية أيَّام ونحن على ظهر المركب، لا نفعل شيئاً سوى الانتظار.

ربَّما تبدأ العمليات غداً.

لا، لن يَحدُث، أخبرني مارغريتي أن لا تعليمات بالخصوص في برقيات اليوم، يقول يجب أن ننتظر

انتهاء المهلة.

أيّ مهلة؟ لم تُخبرني بذلك!

يقول إن جولييتي مستاء من إرسال تركيا باخرة الأسلحة، أرسل تهديداً إلى حقّي باشا مطالباً بإصلاح ظروف الولاية الطَّرَابُلُسِيَّة خلال أربع وعشرين ساعة أو تسليمها سِلْمِيّاً.

ضحك ساندرو على غير موعد، ضحك حتَّى وقع على قفاه، وصفع فخذه بكفِّه عدَّة مرَّات، ثمَّ وثب وجلس القُرْفُصَاء في منتصف السرير، مُستمِعاً إلى ريكاردو الذي عادت إليه حماسته السابقة في سرد أخبار البرقيات نقلاً عن مارغريتي في منصَّة التلغراف، في الصباح لم يعد الخبر سرّاً، كان يلوكُهُ الضبَّاط والجنود مع البيض المسلوق يُخفِّفون به من وطأة المَلَل، ويترقَّبون المساء، حيث نهاية المهلة العجيبة، متسائلين ماذا في وسع اسطنبول أن تفعله في أربع وعشرين ساعة، ورَغْم الإعجاب بدهاء جولييتي الذي نَعَتَهُ البعض بالذئب المُحَنَّك، لم يُخفوا استغرابهم من الموقف، وقال الضابط شافيز الذي كان مُتجهِّماً على الدوام حتَّى في أكثر المواقف تفكُّهاً وطرافة، إنه لم يدرس في الكلِّيَّة الحربية وفي الكُتُب التي قال إنها كثيرة، مادَّة تمنع دولة من إرسال تعزيزات إلى مستعمرة تابعة لها، ومع ذلك يُصرُّ على أن جولييتي كان لاعباً سياسياً محترفاً.

انسابت السفن في مياهها غير مكترثة بالمهلة المقرَّرة لحقِّي باشا، وفي نهاية قوس الأُفق من جهة الجنوب في اليوم التاسع والعشرين من سبتمبر ظهرت اليابسة بلون أصفر باهت، تخرج

منها المآذن النحيلة وأشجار النخيل وبعض المباني البيضاء، وكان الجنود، وحتَّى الجنود الأقلّ خبرة والأكثر بلادة، وهم متشبِّثون بدرابزين مقدِّمة السفينة يراقبون الشاطئ الغامض، يتهامسون ساخرين من خنوع الصدر الأعظم الذي ردَّ على الإنذار بطَلَب التفاوض، وقال إنه مستعدٌّ لتقديم تنازلات وامتيازات استثمارية لإيطاليا، في السابعة مساء اقتربت كوكبة من الضبَّاط يحملون منشوراً قرأه أحدهم بصوت عالٍ عدَّة مرَّات:

اليوم استُنفِدَت المهلة الممْنوحة للدولة العثمانية ومنذ الآن نحن وإيَّاها في حالة حرب.

6

طَرَابُلُس

في أوَّل يوم من أيَّام أكتوبر، وعلى غير العادة جاء الصباح باكراً جدًّا، صفعت الشمسُ أبراجَ القلعة السلطانية، فاستيقظت لتشهدَ البارجة الإيطالية الضخمة تجثُم قُبَالَة ميناء طَرَابُلُس، وكانت الفتاة النحيلة ذات الخمسة عشر ربيعاً تقتاد الحمار الأسود الفتيّ من حَيِّ المَنْشِيَّة باتِّجاه القلعة محاولة تسليك طريقها بين الحشود المتراكضة من الرجال العرب والأتراك والبحَّارة اليونان وبعض التجَّار اليهود وهم يَنسلُّون من الأزقَّة ويتدافعون باتِّجاه الميناء لمراقبة ما يَحدُث، وكان شقيقها ذو الخمس سنوات الذي يعتلي ظهر الحمار ويُطوِّح ساقَيْه العاريَتَيْن على جانبَي مِخْلَاة، بها دَوْرَقَان من الحليب الطازج، يبكي فزعاً من الزعيق البشع الذي تُطلقه البارجة. ولمَّا كان الوقت قد تأخَّر، أو هكذا بدا للفتاة لأنها المرَّة الأولى التي تشهد خَلْقاً كثيرين يتجوَّلون في المدينة قبل موعد بيع الحليب، فقد جذبت اللِّجَام بقوَّة، وسارت جنوباً مديرةً ظهرها لساحة القلعة، لِتَدْلِفَ شارع سيدي حمودة، هنالك أمام بيت مهندم بطلاء أبيض، تُظلِّله أشجار توت وأكاسيا ونخلة فارسية، ربطت الحمار في جِذْع النخلة، وطرقت الباب، كانت السيِّدة الفرنسية غي دافلين زوجة سليمان بك طبيب الحامية العثمانية تُشرف على حزم صناديق الأمتعة لمَّا فتحت الخادمة الزنجية البابَ، وذهبت لتُحضرَ سطل الحليب من المطبخ، نزعت الفتاةُ غطاءَ الدَّوْرَق، وسكبت بمكيالها لتراً واحداً فقط

«لا نريد الكثير من الحليب، فالسيِّدة سترحل صباح غد»، قالت الخادمة وهي تنقدها ثلاث مجيديات عثمانية، في تلك الأثناء اقتربت غي دافلين باتِّجاه السقيفة، حيث تقف الفتاة وشقيقها، وقالت مُعاتِبَة بعربية مُتكسِّرة:

- أووه يا حليمة، ليس هذا وقت الحليب، يجب ألَّا تخرجي من البيت.

- صباح الخير يا للاي، لا بدَّ أن نبيع الحليب كلَّ يوم.

- هي الحرب يا حليمة، الجميع سيغادر، انظري لقد جمعنا الحقائب.

ثمَّ تداركت قائلة:

- تعالي ادخلي، لدينا كعك طيِّب.

اقتادتهما الخادمة إلى أريكة خشبية تحت ظلَّة العريشة، وأحضرت صحناً من البسكويت والكعك، ثمَّ اقتطعت من الدالية عنقوداً كبيراً من العِنَب الأسود، وضعتْهُ في زبدية مملوءة بالماء البارد، التقطت غي دافلين ثلاث حبَّات من العِنَب، امتصَّتْها من دون أيِّ تعبير، ثمَّ أشعلت سيجارة رفيعة، وكلَّما سحبت الهواء يتقعَّر خدَّاها النحيلان، وتغوص عيناها الصغيرتان خلف رموشها الطويلة، ويكسو بشرتها الصفراء مزيد من الشحوب، كانت الفتاة تتأمَّلها ببعض الارتباك، ولم تأكل إلَّا قطعة بسكويت صغيرة، فيما كان الطفل الذي ترك الأريكة واقتعد على الحصير يلتهم بتلذُّذ حَفْنَة من الكعك، وضعها في صحن ثوبه العربي الفَضْفَاض وقد جمعه إلى صدره كاشفاً

عن عورته المختونة حديثاً، حيث تدلَّت مُتورِّمة فوق الحصير. وكان من حولهما حقائب الأمتعة وصناديق وكُتُب كثيرة، حُزمت إلى بعضها البعض بالحبال، قرأتْ حليمة نظرات القلق في عينَي السيِّدة دافلين، وكانت فيما مضى تستقبلها بروح مبتهجة، وتشاكسها بأحاديث النساء الحالمات بالحبِّ، فكشفت لها الفتاة عن حُلْمها بالزواج من بشير رفيق الطفولة الذي يجمع أغمار الحَلْفَا بالقرب من سواني المَنْشِيَّة، ويبيعها إلى مراكب الإنجليز، أخبرها أن الإنجليز يصنعون منها ورق الكُتُب والصحف والقراطيس، ولَكَم تاهت في أفكارها، مُحاوِلة دون جدوى أن تتخيَّل ذلك السِّحْر الذي يحيل خيوط الحَلْفَا الخشنة إلى أوراق الكُتُب المَلْسَاء، وهي التي لا تعرف شيئاً عن منافع الحَلْفَا سوى فضيلتها في تقييد البهائم بعد أن تُجدَل إلى حبال خشنة. أشارت إلى الكُتُب متسائلة:

- هل قرأتِ هذه الكُتُب كلَّها؟

أخيراً تفتح غي دافلين عينَيْها، وتنفرج ملامحها إلى ما يشبه ابتسامة وتقول:

- ليس جميعها، فالكُتُب الضخمة هناك هي مجلَّدات طبِّيَّة لزوجي.

ثمَّ تتابع بحماس:

- ما رأيكِ؟ سأكتب عنكِ قصَّة.

تتَّسع حَدَقَتَا الفتاة، وتسأل بتعجُّب:

- قصَّة! كيف؟

- كتبتُ حتَّى الآن ثمانيَ روايات تسرد قصص أسفاري إلى مُدُن العالم وحكايا الناس الذين التقيتُهم، من الرائع أن أُضيف إليها قصَّة عن فتاة طَرَابُلُسِيَّة جميلة، اسمها حليمة.

توقَّفت قليلاً متأمِّلة وجه الفتاة المتفتِّح كزهرة يانعة، تُطلُّ من ياقة القُفْطَان الأخضر، ثمَّ تابعت:

- ليتني أستطيع وصف جمال حليمة، عيناها التوَّاقتان، وجدائلها السوداء تتراقص حول خصرها حين تركض خلف حمارها السعيد، سأكتب أنكِ فتاة ذكية جدًّاً وطيِّبة، وكيف تساعدين أُمَّكِ، لتدفع أقساط البنك، كتبتُ كثيراً عن فضائح بنك دي روما، ليتكِ تقرئين، يا حليمة.

مدَّت يدها باتِّجاه كومة الصحف، ميَّزت حليمة الحروف العربية التي تعلَّمتْها في الكتاتيب: المِرْصَاد، طَرَابُلُس الغرب، أبوقشَّة، تَعمِيم حرِيْت، وصحف أخرى أخبرتْها أنها فرنسية وإيطالية، شاهدت صورة السيِّدة غي دافلين على زاوية الصفحة الأخيرة بجمالها الوقور، أنف أرستقراطي، ذَقْن دقيق، وشفتان رقيقتان، تعتمر قُبَّعة مائلة مزيَّنة بالشرائط والزهور، قرأتْ لها بعض العناوين، وشرحتْ بأقصى ما يمكن من كلمات مختزلة ماذا يعني استغفال الأهالي بسياسة الرَّهْن، لكن حليمة تفهم ذلك من واقع التجربة، وهي مَنْ فتحت عينَيْها في سواني المَنْشِيَّة التي يبتلعها الرَّمْل في مواسم القَحْط، وخبرت كيف تطوي الليالي الطويلة من دون عشاء، تنظر إلى والدها الطاعن في الكهولة، بشيبه وتجاعيده وتشقُّقات يدَيْه وقدمَيْه، تقرأ فيها سجلَّ البؤس والسنين

العجاف، أخبرتْها أُمُّها أنها تزوَّجتْهُ كهلاً بعد أن فَقَدَ زوجته الأولى وأولاده جميعهم بالطاعون، وكيف حمَّلهم في عربة يجرُّها حمار إلى الخان الذي اتَّخذتْهُ الحكومة لحَجْر المصابين، وكيف شاهد المسعفين يسكبون الكاز على الجثث، ويحرقونها في حفرة كبيرة، في ذلك العام خيَّم الحزن على المدينة وهي تخسر ثلث سكَّانها، وهرب ثلث آخر إلى أقطار بعيدة، لكن الحياة يجب أن تستمرَّ في المدينة المنكوبة، وأن تفتح الناس بيوتها وتُلَمْلِمَ بؤسها وأحزانها، ولم تكن أُمُّها أوَّل فتاة يتيمة تتزوَّج من كهل أرمل مصاب بالتّْرَاكُومَا والجَرَب والسُّعَال، ليمتلئ بيته من جديد بأطفال فقراء، الأوَّل وأطلق عليه اسم خليفة، ليخلف أولاده الراحلين، التحق بمراكب صيد الإسفنج التي يملِكها بحَّارة يونان، مراكب الرقريق كما يطلقون عليهم، يغيب طويلاً في البحر، ويدفعون له بتقتير شديد، لكنه لا يأبه بشيء إلَّا أن يتعلَّم أسرار البحر، قال له والده: «اذهبْ إلى البحر، فلن يكون أكثر غدراً من هذه الأرض الجدباء»، فغدر به ذات ليلة خريفية وألقاه جُثَّةً متورِّمة على رَمْل الشاطئ، أمَّا حليمة التي جاءت ثانياً وحملت اسم شقيقتها المتوفَّاة، فعليها الآن أن تجوب بيوت الموسورين لتبيع الحليب، يرافقها في تجوالها حمد الصغير، يُؤنِس وَحْدتها، ويقطع عنها الألسن والشكوك. ما زالت تذكر اليوم الذي جاء والدها يحمل أوراقاً مالية تراها للمرَّة الأولى، أوراق حمراء كبيرة عليها صور وخطوط غريبة، أخبرهم بأنه اقترضها من البنك ليحفر بئراً في السانية، لن يضطرَّ بعد الآن إلى

انتظار المطر، سيزرع البطاطس والبصل، والدُّلَّاع في مواسم الصيف، قال متفائلاً، لكن حليمة كانت مشدودة إلى الخَتْم الأزرق الكبير الذي يُلطِّخ أصبع إبهامه الأيمن، سألتْهُ: ما هذا يا أبي؟ أجاب بنَزَق: إنه خَتْم نصف المهانة، ولم يقلْ بعد ذلك شيئاً. جاء العمَّال، حفروا البئر ومدُّوا المواسير، تدفَّق الماء عذباً نقياً، ولمَّا عَزَقَ الأرض بمحراثه، رفضت نِظَارَة الزراعة العثمانية أن تعطيَهُ البذور، وقف مع الفلَّاحين في طوابير أمام باب الحكومة، ووقَّعوا التظلُّمات والعرائض، أخبرهم الناظر أنه خاطب الحكومة العَلِيّة، لكن البذور لم تصل. مضى الموسم بلا طائل إلَّا من حشائش متطفِّلة، نَمَتْ بتكاسل حول البئر. حان موعد دَفْع القسط الأوَّل من الرَّهْن، فشكا همَّه إلى قريبه إسماعيل أفندي الذي يعمل في البنك الآن بعد أن تلقَّى تعليماً جيِّداً في اسطنبول، أجابه مقترحاً أن يشتري بقرة تقتات العشب ويبيع الحليب الطازج للجاليات الأجنبية القاطنة في المدينة، جاء بعد أيَّام بخَتْم آخر على إبهامه الأيمن، سألتْهُ الفتاة فقال مُوارِياً عينَيْه: إنه خَتْم النصف الآخر من المهانة، عرفتْ أنه رَهَنَ النصف الآخر من الأرض، لكن المهانة هذه المرَّة أقسى من أن يستطيع احتمالها، فوجدوه ميتاً في فراشه صبيحة اليوم التالي.

ومنذ ذلك اليوم والأُمُّ تسقي الحشائش لِتعلِفَ البقرة، تَحلِبُها وتُحضِّر الحمار والدَّوَارِق للطفلَيْن، فيسرحان في أحياء المدينة، يبيعان الحليب للعائلات الميسورة، كان الحليب وفيراً، مكَّنهم من دَفْع قسط خلال موسم الربيع الماضي، غير

أن الجاليات الأوربية أخذت تغادر تباعاً حين كشَّرت إيطاليا عن أنيابها، وشاعت الأخبار عن وقوع حرب وشيكة، تناقصت أعداد زبائن الحليب لمَّا غادر التجَّار النابوليتانو والإنجليز والمالطيون والرقريق، وعقب ثلاثة أشهر أخبرهم إسماعيل أفندي بضرورة المثول أمام المحكمة للتنازل عن الأرض، أَوكَلَت الأُمُّ شقيقها الذي يعمل بوَّاباً في المدرسة الرشدية، لينوبَ عنها في حضور جلسات المحكمة، وبعد مداولات قليلة، حُفِظَت القضية إثر ترحيل موظَّفي البنك تحسُّباً لِمَا قد يَحدُث في البلاد. لكن حليمة لا بدَّ أن تطرق أبواباً كثيرة، بيوت الصاغة وتجَّار الحرير والعطَّارين والقِرْدَارَة، كذلك تطرق بيوت الزِّمْزَامَات، فهنَّ في الغالب يحصلنَ على أجرة جيِّدة من إحياء الأعراس وحفلات الخِتَان، تتسلَّخ حناجرهنَّ من أغاني بوطويل والمُلَالَاة والزغاريد، كانت مَرْيُومَة الحولة توصي يومياً على لتر من الحليب الدسم لترطيب حَنْجَرَتها، ومَنْ يحتمل مشقَّة الانتظار أمام بابها ويردِّد: «صبري لله ريت غزالة جابتني للنار قبالة»، في الوقت الذي تغطُّ في نومها بعد سهرة مُرهِقة لا بدَّ أن تكافِئَه بمَلِّيم إضافي وقطعة حلوى شاكار، ولا يبقى في الزقاق المتفرِّع من الشارع إلَّا بضعة بيوت يقطنها أتراك سيِّئو الطِّبَاع، أخبرتْها دافلين أنهم سياسيون انقلابيون أو مسؤولون مُرتَشُون، حَكَمَ عليهم الباب العالي بالنفي في الولاية الطَّرَابُلْسِيَّة الفقيرة الموبوءة بالقَمْل والكوليرا والرمال الحارقة، تطرق الباب، فيفتح أحدهم بلهجة متعالية: مَنْ هذا الذي يأتي إلينا بلا سابق موعد؟ ثمَّ يحكُّ رأسه من تحت طربوشه الأحمر

باحثاً عن ذاكرته، ثمَّ يسألها إن شاهدتْ سفينة تنتظره في الميناء، تعلَّمت بحَذَاقَتها أن تقول نعم، يا سيِّدي البيك، هناك سفينة كبيرة أرسلها السلطان من أجلكَ، ففي اليوم الذي قالت غير ذلك صَفَقَ الباب في وجهها دون أن يدفع لها ثمن الحليب.

يمضي الصباح سريعاً، أسرع من أيِّ وقت من النهار، أوقاته الأجمل هي تلك اللحظات التي تكون فيها ساحة القلعة خالية من المارَّة، تحطُّ حمائم بيضاء على الأرض، تلتقط حبَّات الشعير التي سقطت من مكاييل التجَّار. ويغسل الرَّذَاذ القادم من البحر مشربيات النوافذ الفقيرة المزيَّنة بأُصُص الحَبَق والنَّعْنَاع، وحين ترتفع الشمس تُلقِي أشعَّتها الناضجة على صاري السفينة الأمريكية فيلادلفيا المنتصب فوق قمَّة قلعة السرايا، يبدو لمَنْ يراه مثل حارس عملاق يتصدَّى بذراعَيْه الممدودَتَيْن على الجانبَيْن للأطماع التي تأتي عادة من وراء البحر، لطالما سمعت من خالها ووالدها أن هذه الحبال المفتولة الضخمة المتدلِّية من عليائه هي تَذْكار بما كان قبل مئة عام قبل أن تقع السفينة في أَسْر البحَّارة الليبيِّيْن، ويرسلون طاقمها لتقطيع الأحجار في مقالع قَرَقَارِش. في وقت لاحق من الصباح تكتظُّ الساحة بتجَّار الحبوب والماشية، يعلو الضجيج والغبار ومشاحنات الزبائن حول سعر الحطب، ويتكاثر الفقراء لطلب الصدقات، فتجلدهم سياط الجَنْدَرْمَة العثمانية، حينها تكون حليمة في طريقها نحو حارة اليهود، فهو الوقت الذي

تستيقظ فيه اليهوديات، وتفوح من النوافذ التي فتحت للتوِّ رائحة الشاي الأخضر والبيض المسلوق وشراب اللاقبي المتخمِّر من الليلة الفائتة، لكنها قبل أن تصل شاهدت النساء اليهوديات يغادرنَ الحَيَّ إلى وجهة غير معلومة، يمتطينَ ظهور الحمير والبغال، وفي الوقت ذاته يحملنَ فوق رؤوسهنَّ الأطفال وصناديق الأمتعة، لتخفيف الحمل عن الدوابِّ بحسب قولهنَّ، مردِّدات نُوَاحهنَّ المعهود: «قولوا حيه قولوا واه، حصرة يا اللي سيبناه، وياهمي ياوووه علّي راح وماجابوه».

كانت غي دافلين ترسم بدُخانها خيوط القصَّة التي كتبتْها لاحقاً بعد أن غادرت طَرَابُلُس، لكنها الآن مأسورة بشعور غامض نحو الفتاة أمامها، لا تعرف إن كان شعوراً أمومياً طاغياً لامرأة لم تُرزَق بأطفال، وليس لها إلَّا أن تلد أبطالاً على الورق أم هو توق إلى الشباب المغادر بطيشه وجنونه وعواصف غرامه، وهي التي لم تَغبِط الفتاة على شيء أكثر من انتفاضة الحبِّ في قلبها الصغير. وحين شاهدتْها ذات مرَّة من شُرفتها تتبادل حديثاً هامساً مع بشير في طرف الشارع، تضرَّعت إلى السماء أن ينصر حبَّهما على الفقر، ثمَّ تضرَّعت في يوم آخر أن ينصر حبَّهما على الحرب، فلا شيء يُدمِي القلوب مثل الفقر والحرب. همهمت وهي تنفث سحابة أخيرة قبل أن تُطفِئ عَقِبَ السيجارة في المِنْفَضَة، ثمَّ قالت:

- سأكتب أيضاً عن بشير، الروايات الخالدة لا بدَّ أن تَعمرَ بقصص الحبِّ.

انتفضت الفتاة وقالت بهَلَع:

- لا، أرجوكِ يا للاي، سيدي الشعاب في ظهركِ، لا تفعلي، سيقتلني خالي.

- لا تقلقي، أنا أكتب بالفرنسية، لن يقرأ خالكِ ذلك، ولكنني أُراهِنُ أن أشخاصاً كثيرين في أوربا وأمريكا، بل في العالم كلِّه سيعرفون قصَّتكِ يوماً ما.

غمغمت الفتاة بحزن:

قلبي مُنقبِض.

قالتْها وهي تمسح بَلَلاً خفيفاً سطع على حَدَقَتَي عينَيْها، أمَّا دافلين، فلم تكن مُهيَّأة لسماع شيء عن الألم، وقد كانت منذ قليل مُتشوِّقة لالتقاط خيوط قصَّتها الجديدة، كانت دائماً تبحث عن تفسير للحبِّ كيف يتعالى على اللغة والهوية والحضارة، ويجمع البشر في حالة واحدة من الشوق والقلق والشكّ والانتظار، إنه الهذيان اللذيذ الذي لا يعرف الفرق بين غني وفقير، أو بين متعلِّم وأُمِّيٍّ، هو هكذا في كلِّ أرض يجد له أصفياء ومريدين وصعاليك وفلاسفة، في العام اللاحق نشرت كتابها حرب طَرَابُلُس، وكانت تظنُّ أن أقسى ما مرَّت به الفتاة الحسناء بائعة الحليب هو ذلك القلق الصغير، وكان آخر ما دار بينهما من حديث حين ودَّعتْها قائلة:

- هيَّا يا طفلة عودي إلى البيت، لا تبدو الأوضاع مريحة اليوم.

تفاجأ ساندرو وقت الظهيرة بصراخ الجنود وهم يهشُّون شيئاً ما على أرضية سطح السفينة، تسلَّل من بين الأكتاف المتلاصقة وشهق مبهوتاً مثلهم لمَّا رأى عقرباً بلون أصفر برَّاق يحمل ذيله المحتقِن على ظهره، ويدور في حلقة حائرة بين أقدام الجنود. وكان الضبَّاط القدامى الذين شهدوا معارك في صحراء أثيوبيا يُقسِمُون أن العقرب جاء عالقاً في ثياب البحَّارة العائدين للتوِّ من قلعة الولاية الطَّرَابُلُسِيَّة مع الأدميرال فارافيللي، ويكيلون الشتائم للأتراك الخَوَنَة الذين دسُّوا هذا المخلوق المارق في زورقهم حين ذهب فارافيللي ليُفاوضَهم على التسليم. حينها تقافز البحَّارة في أماكنهم، وألقوا عنهم أسلحتهم، ونزعوا بِزَّاتهم العسكرية وقمصانهم القطنية، وحيث لم يبقَ إلَّا سراويلهم الداخلية، شدُّوا أحزمتها المطَّاطة، وانحنوا برؤوسهم يتفحَّصون ما تحتها، كما تعاون بعضهم في تفتيش مؤخِّرات بعضهم الآخر، ثمَّ تشارك اثنا عشر جندياً مع خمسة ضبَّاط في سَحْق العقرب بأعقاب أحذيتهم، وقد تنبَّه الكولونيل بيترو فيري الذي ظهر للمرَّة الأولى على سطح السفينة، قادماً من طَرَابُلُس على الزورق نفسه، إلى الفضول الذي يعصف بالجنود لمعرفة سرِّ ظهوره المفاجئ وملازمته للقادة وكبار الضبَّاط، بدا الأمر ممتعاً بالنسبة إليه، وينضوي على نجومية فريدة، ازدادت توهُّجاً لمَّا شاع أنه ضابط استخبارات مهمٌّ كان يعيش في طَرَابُلُس بصفة مفتِّش بريد.

ولأنه كان جذَّاباً وطويلاً، وله شارب خُرافي ويتكلَّم العربية والتركية والإنجليزية والإيطالية، ويعرف أسرار الولاية الطَّرَابُلُسِيَّة، ويرتبط بعلاقات مع رجال دائرتها الأولى وكبار موظَّفيها، فقد بدا مُعتَدَّاً بنفسه، ويُعرِب عن أحقِّيَّته بنَيْل منصب في قيادة الجيش مكافأة على خدماته الجليلة. ويحاول جاهداً أن يمحوَ من ذاكرة الضبَّاط حديثي العهد أنه كان ضمن فيلق الاستطلاع للجنرال المهزوم باراتيري في معركة عَدْوَة بأثيوبيا، وأن يُذكِّر بين وقت وآخر بميدالية الشجاعة التي حازها عند مشاركته في إخماد ثورة البوكسرز في الصين قبل عشرة أعوام.

لم يشأ ساندرو أن يُفوِّت فرصة الاستماع إليه وهو يتحدَّث عن باشوات طَرَابُلُس الذين ارتبط معهم بعلاقات صداقة، وأهدى إليهم معاطف مأتمية وساعات جيب وأحذية ذات طِمَاق، واحتسى في بيوتهم القهوة التركية مع البقلاوة المخبوزة باللوز والفستق الحلبي، ووصف أولئك الأصدقاء بالمتبلِّدين الذين يُرثَى لأحوالهم، كان يُعدِّد أسماء الباشوات الذين طلبوا منه أن يمتدحهم لدى حكومة روما، والضبَّاط الذين كشفوا له مواقع بطَّاريات المدفعية، والمهندسين الذين استعانوا به في توصيلات التلغراف، والتجَّار الذين ساوموه على أسلحة وتماثيل رومانية، ويقدِّم إحاطات مُوسَّعة للجنود والضبَّاط الذين يتسامرون خلال الليالي الأخيرة على ظهر السفينة كلَّما استفتوه حول الجانب التركي، ولأنه كان حاضراً عند لقاء الأدميرال

فارافيللي مع حكومة الولاية، بصفته مترجماً للقنصلية الإيطالية، فقد نقل إليهم ما حدث قائلاً:

ليس هناك حاكم حقيقي الآن في طَرَابُلس، هنالك عجوز أزعر اسمه بسيم بك الدَّفْتَرْدَار هو مَنْ يُصرِّف شؤون الولاية، أعرفه جيِّداً، هو لن يوافق على تسليمها، ذلك متوقَّع لدولة منهارة، تحاول حفْظ ماء الوجه، لكن الحُنْكَة السياسية تقتضي أن نضعهم في حالة من القلق، تلك أفضل وسيلة لتدمير المقاومة.

في ذلك الصباح كانت البارجة الحربية تُطلِق زعيقها في الميناء، وتُرسِل سحابة من دخان أسود تتحرَّك في كتلة مُكفهرَّة باتِّجاه فناء القلعة، حين ترجَّل بسيم بك الدَّفْتَرْدَار من عربة أميرية يقودها حصان أصهب، ودَلَفَ إلى مكتب الولاية، حيث ينتظره قائد الأركان نشأت باشا، لاستقبال فارافيللي مبعوث قيادة الأسطول الذي جاء مهدِّداً بانتزاع الولاية.

شعر بسيم بأنه سلَّم مفاتيح الولاية منذ سنين طويلة، ولم يعد له الآن إلَّا أن يرثي عُمُره المهيض، ويبكي السنوات كلَّها التي قضاها في وظيفة الدَّفْتَرْدَار، يتعاقب عليه الولاة بألقابهم ونياشينهم وضجرهم وتثاؤبهم، وهو في المكان ذاته، يُدوِّن الحسابات ويجمع الضرائب من الفقراء، ويدسُّها في جيوب الولاة، بلا جدال، بلا دهشة، بلا استياء. وكلَّما عيَّن الباب العالي والياً جديداً على ولاية طَرَابُلس، انحنى أمامه بإخلاص كلب لم يطَّلع على عورات الأسياد. وفي المرَّة الوحيدة

التي كاد أن يتفوَّه أمامه بكلمة فساد، رأى الصدر الأعظم في لحظة كشف نورانية يرفع سَوْطه عالياً، فقفز من مكانه قبل أن يهويَ السَّوْط على مؤخِّرته العجفاء.

لقد تفقَّه جيِّداً في دروس الصمت، وارتسم ظلٌّ من الخنوع على مَغَارَتَي عينَيْه التائهتَيْن، على حاجبَيْه البليدَيْن وتجاعيد جبينه الممتلئة بالحَيْرة والرضوخ، حتَّى عندما اعتلى حزب الاتِّحاد والترقِّي حُكْم الأستانة، وظنَّ أن الدستور سيُحرِّر لسانه من لعنة الصمت، خاب ظنُّه وهو يراقب الوالي رجب باشا يصارع وحيداً ضدَّ سياسة بنك دي روما في نقل مِلْكِيَّة أراضي الفلَّاحين إلى الطليان، يأتي قرار عَزْله سخيفاً بمنطوق عابر تكرَّر مع الولاة السبعة الذين تعاقبوا، وفي سابقة مثيرة، على حُكْم طَرَابُلُس خلال عام ونصف، هكذا صمت أمام القرارات كلِّها حتَّى عندما سحب الصدر الأعظم حقِّي باشا جنود الحامية العثمانية من طَرَابُلُس، وأرسلهم لرَدْع التمرُّد في اليمن، واستحوذ على أربعين ألف بندقية كانت في طَرَابُلُس وشحنها إلى الأستانة بدعوى الصيانة، قائلاً لوزير حربيَّته: «لا خوف على طَرَابُلُس من الطليان». يومها جاءت السفن لترحيل عشرين ألف جندي إلى اليمن، ولم يبقَ في طَرَابُلُس إلَّا ألفا جندي على أقصى تقدير. صاح بسيم مذهولاً أمام القرار العَبَثِيّ، وكتب رسالة إلى الأستانة، وفي اليوم الثاني وصله الردُّ بأن يبتلع لسانه الأخرق، كان كَمَنْ تلقَّى صفعة بيد ميت، فحقِّي باشا كان أبعد ما يكون عن هموم طَرَابُلُس، ولم يصحُ من

غيبوبته إلّا عندما جاءتْهُ رسالة الإنذار ليلة السابع والعشرين من سبتمبر، وتركتْه يتخبَّط كالمصروع.

مع تواتُر زعيق البارجة وضجيج الجنود في شرفات المراقبة دَلَفَ بسيم مسرعاً عبر الباب الجنوبي للقلعة، كان ينتظره أمام مكتب الولاية رئيس الأركان نشأت باشا، حيَّاه متنهِّداً، وصرف الجنود والضبّاط الفضوليِّيْن لمَّا رآهم يُحملقون في أثاث مكتب ديوان الولاية الذي لم يدخله أحد منذ أن غادره الوالي المعزول إبراهيم باشا قبل شهر ونصف، واطمئنَّ إلى حُسْن تدبيره باستقبال قائد البارجة في المكتب أمام العَلَم العثماني وأوسمة النصر والبنادق المرصَّعة بالذهب، ليحفظ ما يمكن من هيبة الدولة التي أهدرتْها حكومة الاتِّحاديِّيْن ورئيسها العابث.

- نحن لم نتلقَّ أمراً من الباب العالي بالتسليم.

أجاب نشأت بك ضاغطاً على موجة غضب أشعلت ملامح وجهه، فبادر بسيم إلى تهدئة المناخ وقال بكياسة معدنية باردة:

- ربَّما كان من الممكن حلّ المسألة ودِّياً دون إراقة الدماء.

شعر فارافيلي برغبة في الضحك، وأشفق بشيء من الشماتة على حال العجوز المتفائل، تبادل نظرة مع المستر غاللي القنصل الإيطالي في طَرَابُلُس الذي كان مرافِقاً له في سفارته، ونظرة ممَّاثلة مع مفتِّش البريد بيترو فيري الذي كان يحمل صفة مترجم أيضاً في ذلك الوقت، ثمَّ قال بلهجة متعجرفة:

- إن أسطولنا الذي يقف أمامكم الآن هو رمز كرامة الأُمَّة الإيطالية، وما دمنا قرَّرنا الحرب، فسوف تكون.

حينئذ ودون أدنى رجفة توتُّر، ومثل محكوم في طريقه إلى المِقْصَلَة، ولم يعد يعنيه ما سيحدث بعده من خراب، قال بسيم:

- أهل طَرَابُلُس وتركيا العَلِيَّة لا يُصغون إلى تعليمات تأتي إليهم من مرحاض أوربا.

لم يعد هنالك من شيء يُقال، فقد غادر فارافيللي من دون تحية، ليقطع آخر شَعْرة فاصلة بين ما كان وما سيكون.

8

لم يَحدُث أيُّ شيء غريب طَوَالَ الاثنَي عشر يوماً التي قضاها ساندرو في عرض البحر على متن سفينة (ري أمبرتو) سوى اختفاء البيض المسلوق من وجبة الإفطار في ذلك اليوم، واستبدالها القشدة المحلَّاة بالمربَّى مع القهوة الكثيفة وأرغفة من الخبز المُحمَّص، أكل بشراهة لم يجد لها تفسيراً، واحتسى قهوته مع نصف سيجارة مخبَّأة في جيب سترته من الليلة الفائتة.

هكذا جاء الصباح هادئاً ورزيناً، ولا يوحي بشيء ممَّا سيحدُث لاحقاً، وفنَّدت الشمس المزاعم بأن مطراً وشيكاً سيَهطِل من رُكام السُّحُب المتلصِّصة، كان على الجميع أن يصعد إلى ظهر السفينة بمجرَّد الانتهاء من تناول الإفطار، فاحتشد الدَّرَج الخشبي بأصوات الأحذية الكبيرة والضجيج الخشن ورائحة التبغ والسُّعَال، وبعض الهمهمات التي كانت فيما سبق مقاطع من أناشيد حماسية. وعلى مدى البصر ظهرت طَرَابُلس، قوساً كبيراً من المباني البيضاء والرمال الذهبية، يُكلِّلها شريط أخضر، وغابات من النخيل والمآذن. ولمَّا حلَّت الظهيرة وارتفعت الشمس إلى أعلى مداها كان ساندرو متلاشياً مثل قطرة من زَبَد البحر يتابع بمَلَل تأكيدات الجنرال سبينييلي من أمام قُمْرَة القيادة، بأن الساعات القادمة ستكون حاسمة وعَصِيَّة، لليوم الثالث يُعيد على مسامعهم أن الأسطول الإيطالي الآن على بُعْد ستَّة أميال من شاطئ طَرَابُلس، ويُذكِّر بين الحين والآخر بأنه «بُعْدٌ مثالي لمدى قذائف

المدفعية عيار 305 ملم المصنوعة في وِرَش سكودا في بوهيميا»، وفيما هو يقول بلُكْنَة متعالية : «إن أبعد مدى للمدفعية التركية لن يتجاوز ثلاثة أميال»، حطَّ سرب من النوارس على درابزين مقدِّمة السفينة، ما أثار زوبعة من التهليل المتفائل بين صفوف الجنود الذين صَعِدُوا للتوِّ، ومن باب التيمُّن سارعوا بنَثْر فُتَات الخبز المبلَّل في أماكن متفرِّقة على سطح السفينة، لكن النوارس حلَّقت بعيداً بعد أن ألقت أكواماً من القاذورات على رأس الجنرال سبينييلي وجنوده الذين كانوا في كامل قيافتهم العسكرية، في تلك الأثناء تحرَّك الطَّرَّاد غاريبالدي بمدافع الطوربيد الخمسة، ليسير في مقدِّمة الأسطول مثيراً الأمواج العالية، وسرعان ما لحق به الطَّرَّادَان فاريزي وماركو بولو، ليُشكِّلا مع غاريبالدي خطّاً هجومياً أمامياً يتقدَّم السفن والبوارج والمدمِّرات. عند الساعة الثالثة وخمس وثلاثين دقيقة أطلقت الطَّرَّادَات في الخطِّ الأمامي أوَّل قذيفة مدفعية باتِّجاه ساحل طَرَابُلُس، وجاء هديرها مثل صدمة، أو صفعة تُوقِظ الحواسَّ التي أصابها الفتور طَوَالَ الأيَّام الفارطة، ساد وجوم غريب وتبادل الجنود النظرات مذهولين، وبشكل غير متَّفق عليه، نظروا باتِّجاه الدَّرَج الذي يقود إلى الطوابق السفلية، انقضت خمس دقائق من الصمت المريع، دون أيِّ ردَّة فعل من الجانب العثماني، ثمَّ أطلقت الطَّرَّادَات ستَّ عشرة قذيفة متقطِّعة، غمرت هواء البحر برائحة البارود، وعلى الجانب الآخر ارتفعت أعمدة دخان أسود كثيف تُنبِئ عن حرائق خلَّفتْها القذائف، وكان كلُّ ما يفكِّر فيه ساندرو في ذلك الوقت

هو محاولة تذكُّر الدروس العسكرية إذا ما تضمَّنت شيئاً عن الصدى اللولبي الذي يتعاظم حول كتلة الرأس بعد انفجار القذيفة، ثمَّ الطنين العنيف وهو يُمزِّق جدار طبلَتَي الأُذُنَيْن، أراد أن يسأل ريكاردو الذي بدا منهمِكاً في نَحْت عبارة تَذْكارية برأس حَرْبته على القائم الخشبي الذي يحمل العَلَم، وانتابتْهُ رغبة عارمة في الضحك، إذ إن آخر ما يمكن توقُّعه من ريكاردو الآن أن يستذكر هذا البيت من قصيدة بترارك:

«أنا في حالة حرب .. إني جريح .. والتفكير بك هو أجمل العون الذي أنال»

كم أنتَ بليد، ياريكاردو.

قال له موبِّخاً، لكنه، وفي وقت لاحق، شعر بالتحامل عليه، إذ إن ريكاردو كان رومنطيقياً أكثر من أيِّ شخص آخر قابله طَوَالَ حياته، وعندما تعرَّف عليه بمعسكر التدريب في ميلانو قبل أحد عشر شهراً، أثار انتباهه بانكبابه الدائم على الكُتُب، يقرأ طَوَالَ الفترة التي تسبق النوم، ثمَّ يُدوِّن شيئاً في أوراق يطويها بعناية، عرف في وقت لاحق أنها رسائل حُبٍّ لفتاة تعيش في فيرونا اسمها ليزا، تعرَّف إليها حين كان يعمل في مزرعة تبغ ضمن أملاك والدها أندريه بسكوني الإقطاعي المتنفِّذ الذي يملِك أربعين في المئة من أسهم مصنع السافينيللي للسجائر. ولمَّا شاهد ساندرو يدندن بخفوت على قطعة هارمونيكا، استطاع تهريبها من عقبات التفتيش بالمعسكر، اقترح عليه أن يرافقه في إحدى عطلات الآحاد، ليعزف سيرناد حُبّ تحت شرفة

المحبوبة الأرستقراطية مقابل ثلاث ليرات، ليس من بينها سعر تذكرة القطار، تجادلا طويلاً، لكن ريكاردو كان مُساوِماً عنيداً، ووعده بأن يضاعفَ له الأجرة إذا انصاعت الفتاة لرغبته، ونزلت من شرفتها للقائه، كما هدَّده أيضاً أنه في حال لم ترق لها المقطوعة، فأقفلت شرفتها وغادرت، سوف يَخصِم منه نصف الأجرة الموعودة، بدا العرض سخيفاً ومضحكاً، لكنْ؛ مُسلِّياً، ويشفع له ما انطوى عليه من جانب التحدِّي.

في الرابعة من مساء ذلك الأحد كان ساندرو في محطَّة القطار وقد اشترى تذكرة إلى فيرونا، ووقف بانتظار الفتى العاشق. قابله بعد قليل يرتدي قميصاً بلون الزبدة وسروالاً من قماش كاروهات بنِّيَّاً مشدوداً بحمَّالَتَيْن حمراوَيْن من المطَّاط، وقد شذَّب للتوِّ شاربه الأشقر القصير ومشَّط شَعْره على جانب واحد، بدا عاشقاً مثالياً وهو يجلس في مَقْعَد القطار بصمت راهب في محرابه، ممتلئاً بإجهاشة ما ظلَّت عَصِيَّة على فَهْم ساندرو الذي يَحسِب نفسه ضليعاً في عوالم الحبِّ والنساء، ولكنه لم يجلس يوماً بتلك الحرارة، بذلك الامتلاء والتشبُّع والرضا، شعر بمرارة أن يكون وحيداً في فيرونا مدينة الحبِّ والعشَّاق، هكذا بلا حبيبة، فيرونا التي احتضنت روميو وجولييت في أسطورة خالدة، كيف لها أن تستقبل رجلاً فارغاً هكذا بلا إجهاشة، بلا حرارة أو امتلاء؟! وكيف له أن يبيع سيرنادات الغرام لرفاقه العاشقين، وهو لم ينصهر بعد في لهيب حُبٍّ متأجِّج، يقترف لأجله الحماقات والأخطار؟!

أمام محطَّة فيرونا استقبلتْهما لافتة كبيرة، كُتب عليها «مرحباً بكم في مدينة الحبِّ»، واحتشدت الصور الرومانسية لروميو وجولييت على الدرابزينات وأكشاك الحلوى وعربات الباعة المتجوِّلين وواجهات المقاهي والحانات، وفي الجوار وقف باعة الزهور أمام عرباتهم اليدوية المَطليَّة باللون الأحمر، وقد صُفَّت عليها بأناقة زهور التُّوْلِيْب واللَّافَنْدَر والأُقْحُوَانُ والزَّنَابِق البرِّيَّة، وغصَّ المكان بزبائن من أعمَّار مختلفة، يصطحبون نساء مُدلَّلات ضاحكات يَرْفُلْنَ في تنانير واسعة وقُبَّعات مُزيَّنة بالفواكه والعصافير والأزهار. أنفق ريكاردو ثلاثين سنتيماً في شراء باقة من الزهور الحمراء اليانعة ملفوفة بشريطة من الدانتيل، ودفع بضع سنتيمات أخرى لاستئجار عربة يَجُرُّها حصانان، سارت طيلة وقت المغيب بمحاذاة نهر أديجي، امتزج صوت خَبَب الحصانَيْن بأنغام أكورديونات الغجر وموسيقى اليونان الشعبية ووقع أقدام العشَّاق وهم يرقصون متخاصرين أو متعانقين، كان قد مضى شطر من الليل حتَّى وصلت العربة إلى الجسر الحَجَريّ الذي يفضي إلى الضفَّة الأخرى للنهر، حيث توقَّفت أمام منزل كبير خالٍ من أيِّ إرهاصة جمالية عدا بعض نقوش الباروك التي زخرفت المدخل الضخم، وطوق من القِرْمِيْد الأحمر يقلِّد النوافذ والشرفات، أعاد ريكاردو تمشيط شَعْره بأصابعه، واطمئنَّ أن أريج الباقة المدلَّلة ما زال عَبِقاً، أمَّا ساندرو، فقد شعر بخيبة من نوع ما، ربَّما لأن الشرفات جميعها كانت مغلقة، وكذا المصابيح كانت مُطفَأة، وبدا المكان ساكناً ومُوحِشاً وغارقاً في صمت مريب،

ومع ذلك اتَّخذ الشابَّان مكانهما تحت أغصان الزيزفون الوارفة، قُبَالَة الشرفة التي يُفترَض أنها لغرفة نوم الفتاة، أخرج ساندرو آلة الهارمونيكا، ومسح ثقوبها بكُمِّ قميصه، وبشعور متسامح عزف فالساً رومانسياً من مقطوعة ليلة صغيرة لموزارت، متضرِّعاً بأن تَحدُث معجزة، وترفرف الستارة الشفَّافة من خلف النافذة المقفلة، وأقسم بالعذراء أنه في حال استيقظت الفتاة وفتحت النافذة ووهبت هذا الشابَّ المعذَّب شرف إطلالتها، ليتنازلنَّ عن أجرته، ويتطوَّع بالعزف لهما حتَّى الصباح، وفيما هما يستندان إلى جِذْع الشجرة، ويحدِّقان بالنافذة إذ أضاء نور شاحب من خلف الستارة، ثمَّ انفرجت دَرْفَتَا النافذة، وظهر رجل ضخم بمعطف نوم أسود وغليون كبير في فمه، وقبل أن يفكِّرا بوسيلة انسحاب آمن، أطلق صفيراً حادَّاً لكلابه الألمانية الشرسة، حينها لم يكن أمامهما سوى الركض بسرعتهما القصوى في اتِّجاه الجسر الحجري، حيث بالإمكان اللحاق بالعربة القافلة باتِّجاه المحطَّة، في الأسبوع الموالي صرخ ريكاردو بفرح هستيري، غير مُصدِّق ما يقرؤه في رسالة فتاته:

«في تلك الليلة، وكنتُ أستمع إلى السيرناد الناعم قُبَالَة الشرفة، كنتُ أعرف أنه أنتَ، وشاهدتُك مع رفيقك من خلف الستارة، كنتُ أحاول التسلُّل لملاقاتك، لكن أبي استيقظ فجأة وفتح النافذة .. في الصباح التقطتُ باقة الورد الجميلة من تحت شجرة الزيزفون- حبيبتك ليزا».

أصبحت ليزا الجزء الوحيد الطرِي في وطأة الأيَّام

المتقشِّفة، ومثل سجائر ممْنوعة كان الحديث عنها يدور في الليل، في المخدعَيْن المتجاورَيْن في منامة المعسكر، يتنفَّسانها معاً وهما يتبادلان التدخين من سيجارة واحدة، تتوهَّج الجَمْرَة ببطء .. تنغمس في القطران الخفيف .. تتسكَّع الخيالات الماجنة خلف سُحُب الدخان .. يرتشفانها حتَّى الرمق الأخير .. ويستسلمان لِمَا تجري به المقادير من أحلام. أطلعه على الرسائل جميعها، حتَّى تلك القُصَاصَات الصغيرة التي كُتبت بحميمية على ورق الحمَّام، وفي أوقات لاحقة لم يعد ساندرو يجد غَضَاضَة في سؤال صديقه إذا كانت قد وصلتْهُ رسائل جديدة، ومع الأيَّام أصبحت قراءة رسائل ليزا حقَّاً مشروعاً لساندرو، وإن كان لا يملِك حقّ ريكاردو نفسه في الردِّ عليها.

في أواخر الربيع وبعد قضاء عطلة عيد الفِصْح، عاد ريكاردو إلى المعسكر مهموماً، أخبره بأن والدها يريد تزويجها إلى ابن شريكه في مصنع التبغ، وقد منع عنها الخروج أو إرسال الرسائل، وصفه بأنه رجل فظٌّ وبخيل ومَهوُوس بالطعام والشراب، يخاف الفقر الذي تخبَّط فيه بمطلع عُمُره حين كان بائع سجائر فقيراً متجوِّلاً قبل أن يقف الحظُّ إلى جانبه في ثورة الخبز الأولى، في الثورات يتصرَّف الحظُّ بنذالة، فيقف إلى جانب اللصوص، قال ذلك آسفاً، وسرد له ما حدث حين هزَّت الحوادث مُدُن لومبارديا وفينيسيا وبقية الإيالات الإيطالية التابعة لحُكْم النمسا احتجاجاً على ارتفاع سعر الخبز، وكيف قرَّر الميلانيون الإضراب عن تدخين التبغ النمساوي لإلحاق الضرر

بالخزينة النمساوية. أقفلت مقاهي المدخِّنين، وعزف الناس عن شراء السجائر، حينها استغلَّ الجيش النمساوي الإضراب فوزَّع مقادير من التبغ على رجال الحامية، وأخذوا يَنفُثُون الدخان على المارَّة مثيرين غضب الأهالي واستفزازهم، الأمر الذي انقلب إلى معارك عنيفة، أودت بحياة السكَّان العُزَّل. لقد ولَّدت فتنة التبغ حقداً عامَّاً في إيطاليا جميعها تجاه جنرالات النمسا، لكن أندريه بسكوني الذي كان تاجر تبغ صغيراً، يرتبط بعلاقات مع مورِّدي التبغ في مُدُن لومبارديا اتَّفق مع المورِّدين على انتهاز الفرصة وتسويق التبغ في الخفاء بأسعار مخفضَّة، وحصد أرباحاً هائلة كمُحتَكِر وحيد لتجارة التبغ بعد إغلاق المحلَّات العامَّة، في وقت قصير استطاع شراء مزرعة تبغ، ليقفز فجأة إلى خانة الأثرياء، ثمَّ يصبح لاحقاً من الأسماء الكبرى في عالم زراعة التبغ وتصديره.

كان ريكاردو بائساً وحزيناً إثر عودته من عطلة العيد، أخبر ساندرو أن ليزا تتحدَّى تعنُّت أبيها، وترفض الزواج من خاطبها القادم، غير أن ذلك وحده لن يكفي لإنقاذ حبِّه من فراق محتوم، يعلم أن والدها لن يقبل مصاهرة الشابِّ الفقير الذي يكسب قوَّته من العمل على آلة التكبيس في مزارع التبغ، قال وهو ينظر إلى نقطة بعيدة في جدار الغرفة، كأنه يخشى من نظرات السخرية في عينَي صديقه:

يجب أن أشتريَ مزرعة.

لم يأخذ ساندرو كلماته على مَحْمَل الجدِّ، جازماً أنه بالنسبة إلى أجير يعمل على جرار التكبيس

لو قضى ثمانين سنة من العمل وتوفير أجرته بكاملها لن تكفيَهُ لشراء مزرعة، لم يُكلِّف نفسه عناء الردِّ عليه، عندها كرَّر كلماته:

يجب أن أمتلِك مزرعة في أسرع وقت ممكن، وإلَّا فلن يقبل بي بسكوني صهراً له.

أظنُّ أن الحبَّ يجعلكَ تهذي.

بل أعني ما أقول.

كيف ذلك يا صاح؟

نذهب إلى تريبوليتانيا.

هكذا جرى ذلك الحديث بينهما منذ أن أعلنت حكومة جوليتي عن عزمها توجيه حملتها الاستعمَّارية إلى ولاية طَرَابُلُس، وبارك الكرسيُّ الرسوليُّ في الفاتيكان تلك الرغبةَ، وحشد الخُطَب والصحف والقصائد نحو الخيرات الوفيرة والأراضي الخصبة التي سيحظى بها أبناء إيطاليا من الجنود الأبطال الذين سيرفعون العَلَمَ ذا الألوان الثلاثة فوق قلعة الرجل المريض. ولمَّا قررت الهيئة العامَّة للجيش ضمَّ الفوج الرابع والثمانين مشاة إلى الحملة الغازية، لم يفكِّر ريكاردو بشيء إلَّا أن يُحقِّق حُلْم العُمُر بامتلاك مزرعة، ويعود كبطل مظفَّر إلى فيرونا، يطلب ليزا من أبيها باعتزاز وكبرياء.

مضت فترة من الصمت توقَّف فيها إطلاق قذائف المدفعية من الطَّرَّاد غاريبالدي، واختفى الطنين اللولبيُّ الذي أصاب ساندرو، وصار أكثر تفهُّماً للحالة الشِّعْرِيَّة من عصر النهضة التي أحاطت بريكاردو، وحتَّى ذلك الوقت لم تَحدُث أيّ

ردَّة فعل من الجانب التركي، عَزَا سبينيللي ذلك إلى حرص الأتراك على عدم تبذير ذخيرتهم، وحذَّر ثانية من اشتباك وشيك خلال الساعات القادمة عندما يقترب الأسطول من مدى المدفعية التركية، ولمَّا انتهى ريكاردو من نحت العبارة وضع أسفلها الحرفَيْن الأوَّلَيْن من اسمه واسم ليزا، وتراجع باطمئنان إلى الخلف، ليرى كيف يبدو الحرفان من زاوية بعيدة، وحينئذ فقط انتبه إلى النظرة المذهولة التي اعتلت وجه ساندرو وصرخته الهلعة وهو يشير إليه منبِّهاً إلى ما يَحدُث من وراء ظهره، تزامن ذلك مع صوت الصفعة الضخمة للقذيفة التي شقَّت البحر، وصيحات الجنود وهم يتراكضون بهَلَع، ولمَّا التفت إلى حيث أشار له ساندرو كان المَدُّ يرتفع على الجانب الأيسر من السفينة، ويجثُم بظلاله كغول ضخم، لم يكن ضمن أيٍّ من دروس المخاطر المضمَّنة بالمناهج العسكرية، وفي لحظة تدفَّقت شلَّالات الماء إلى السفينة، تَجرُف في طريقها الصناديق ومقاعد المشمَّع ونقَّالات الإسعاف والأَسِرَّة المُعَدَّة للجرحى، وقبل أن يتمكَّن من التمسُّك بأيِّ شيء، ليحفظ توازُنه انزلق مع التيَّار، ودفعتْهُ الموجة ليصطدم رأسه بالقائم الخشبي، حيث نقش قصيدة بترارك، تلك الصدمة القاتلة التي أودت بحياة أوَّل جندي من جنود الفوج الرابع والثمانين مشاة.

9

الآن، وبعد انتهاء دور ساندرو في مسرح الحرب، وبعودته إلى نابولي محمَّلاً بمحنته، سيظلُّ يذكر أن أقسى التجارب التي يمرُّ بها الجندي ليست موت رفيقه، ولكن القسوة كلّ القسوة حين يُمنَع من البكاء عليه، سيذكر بشاعة تلك القوانين التي تَخْنُق الحزن، وتُعاقِب الجندي الباكي بالتضحية به في أُتُون المخاطر، يقولون له: أنتَ لستَ رجلاً، اذهبْ لتتعلَّم الرجولة في خطِّ النار، سيظلُّ يذكر أن التعميد بالنار هي أفظع عملية لصناعة الرجولة، وإذا كانت الحرب، بحسب شعار المستقبليِّيْن، هي النظافة الوحيدة في العالم، فإن البكاء هو الشيء الوحيد الإنساني الذي يَعصِمه من أن يصبح مَسْخَاً.

في وقت لاحق، ولمَّا أصبح الرفاق يتساقطون كالثمار الناضجة على الرمال، سمحت لهم القوانين بالبكاء، ولكنْ، من دون أن يشهقوا، وقتها لم يعد باستطاعتهم البكاء. القادة فقط مَنْ بَكَوا حينئذ لأسباب ليست ضمن مستوى اهتمام الجنود.

انحسرت دوَّامة الماء عن جسد ريكاردو وهو عالق في وضع جنينيٍّ بين الأَسِرَّة الحديدية، وقد سال الدم من أنفه إثر الصدمة العنيفة بالقائم، قال الطبيب إن الصدمة لم تكن السبب في موته، لكنها أفقدتْهُ الوعي، لهذا سحبتْهُ الدوَّامة إلى الأسفل حتَّى اختنق تحت الماء. أحدثت حالة موته بلبلة في فصائل الجنود، وخاصَّة صغار السنِّ الذين لم يتصوَّروا أن الموت يمكن أن

يكون مُراوِغاً وقريباً هكذا ويخطف أحدهم قبل دخول معركة حقيقية، أمَّا ساندرو، فقد تعلَّم بعد صفعتَيْن ورَكْلَة وسَيْل من الكلمات الجارحة كيف يبكي بصمت، كيف يقهر الشهقات، ويملأ رئتَيْه بالهواء ليُبرِّد الحرائق المستعرة في الحَلْق، أن يُلَمْلِمَ قَدْر ما يستطيع من حرارة الروح، ليتزوَّد بها في وَحْدته حين يأوي إلى مخدعه، ويُدخِّن نصف سيجارته وحيداً، ونصفها الآخر سيُطفِئُهُ إكراماً لتجلِّيات الحزن العظيم، الحزن الذي سيجثُم في الأعمَّاق، لأنه لم يجد مَنْفَذاً للخروج.

في تلك الليلة كان سرير ريكاردو خالياً، ورائحته عالقة بالوسادة، وحدها مفكِّرته ذات الغلاف الجِلْدِيّ كانت تنتظره ليكتب على صفحاتها رسائل حبٍّ جديدة، يُخبِّئها إلى أجلٍ غير مُسمَّى، وبأصابع مرتعشة فتح إحدى الصفحات، كان خطُّه جميلاً، منساباً مثل تلك الحروف التي تُكتَب بها عبارات التهنئة على البطاقات البريدية، اغرورقت عيناه، وأقفل المُفكِّرة دون أن يقرأ شيئاً. استلقى وعيناه معلَّقتان في السقف، وقد أُطفئت الأنوار، وغرقت عنابر النوم في ظلامها الدامس، ولأوَّل مرَّة ينتبه إلى أن الظلام كان حالكاً جدَّاً، حتَّى إنه لم يعرف اتِّجاه رأسه على السرير، مَدَّ ذراعَيْه في الهواء مُحاوِلاً تحديد اتِّجاهه، كان الفراغ مَهُولاً، والظلام دامساً وكثيفاً، دفع قدمَيْه أسفل السرير، لكنه لم يستطع أن يلامس الأرضية، بدت بعيدة جدَّاً، وشعر أنه على وشك السقوط من قمَّة كوكب. انتبه إلى رائحة تأتي من مكان قريب .. رائحة تبغ طازجة .. التفت إلى الجوار ..

كانت الجَمْرَة تشتعل ببطء وأنفاس قريبة تلهث .. تلهث بقوَّة كأنها تُصارِع الموج .. حَبَسَ أنفاسه، وحدَّق في جَمْرَة السيجارة .. في الدخان المنبعث حولها.. في الاتِّجاه الذي لم يستطع تحديده .. وشيئاً فشيئاً تضاءلت الجَمْرَة، لكنه سمع حفيف الورق من المفكِّرة الجِلْدِيَّة، وانسياب القلم على الصفحة، وصوت بكاء خفيض .. خفيض جدَّاً .. إذ إن البكاء ممْنُوع حتَّى في أشدِّ الحالات حزناً.

في الصباح وحين استيقظ من نومه، قال بصوت عالٍ أمام جنود العنبر وهم عائدون من دورات المياه بشُعُور مُبلَّلة ومناشف متدلِّية على أكتافهم، «قد كان حُلْماً»، ضرب قدمَيْه على الأرضية الخشبية مؤكِّداً أنه لن يسقط من قمَّة الكوكب، في تلك اللحظة عاودت الطَّرَّادَات القصف من جديد، وجاء صوت القذائف مُدوِّياً بكثافة مضاعفة، قُرعت الأجراس للتنبيه، واكتفى مع بقية جنود المشاة في السفن الضخمة التي تتَّخذ مكانها في مؤخِّرة الأسطول، بمراقبة حركة الطَّرَّادَات وهي تُناوِر في المقدِّمة، وتُطلِق قذائفها باتِّجاه القلاع المُحصَّنة ببعض المدافع، ثمَّ وجد نفسه مع فصيل من الجنود يتسلَّون بإحصاء عدد أعمدة الدخان المنبعث من الحرائق. «لدينا ألف حريق» صاح أحدهم، ولقَتْل المَلَل قرَّروا إعادة اللعبة، والبدء في العَدِّ من جديد، فيما اقترح أحد الضبَّاط لعبة أخرى أكثر تسلية، اختيار أحد المباني والتصويب عليه بالمدفعية، الفائز مَنْ يصيبه من ضربة واحدة، اشتدَّ التنافس، وقضى الضبَّاط مساءً مثيراً، وكلَّما سقط أحد المباني

يرتفع الضجيج والتهليل، شيئاً فشيئاً تناقصت المقاومة، وتراجع صوت المدفعية التركية إلى أن اختفى تماماً، حينها اقتربت السفن الكبيرة حتَّى لم يعد يَفصِلها عن الشاطئ إلَّا قرابة خمسين متراً، استطاع أن يشاهد عن قرب قلعة السرايا بأحجارها الحمراء، والمآذن والقلاع الصغيرة التي هدمتْها قذائف المدفعية فوق الهضاب المرتفعة عند شرق المدينة، كان الجنود يُهلِّلون بترنيمتهم المُفضَّلة «تريبولي بيل سول دامور»، وحان الوقت ليؤدِّي الكولونيل بيترو فيري مهمَّته الحقيقية بتعطيل بطَّاريات المدافع، التي زرعوها ثمانية عشر شهراً في الأرض الطَّرَابُلْسِيَّة لأجل تحديد أماكنها، كان حريصاً على تجميع أكبر عدد من الضبَّاط والجنود في ساحة العقرب، كما أطلقوا عليها، ليشهدوا اللحظة الحاسمة بنزوله في القارب الذي انفصل عن السفينة، وأبحر باتِّجاه القلعة، فيما الطَّرَّاد غاريبالدي وقارب الطوربيد الباتروس يرسلان طَوَالَ الوقت القذائف فوق رأسه لحمايته من أيِّ هجوم قد يقع عليه من جانب الأتراك، ورَغْم أنه لم يجد أيَّ مقاومة بعد انسحاب تامٍّ للقوَّات التركية، وكانت مدافعهم مُهشَّمة كلِّيَّاً، تنقلب فُوَّهاتها نحو السماء، كأنها في حرب نجوم، ومع ذلك وصف الضبَّاط المهمَّة بأنها ضربة جريئة، وعملية محفوفة بالمخاطر، مؤكِّدين بأنها تمَّت «بثبات وشجاعة غير معقولة».

قبل أن يَحِلَّ الظلام، هبط مع جنوده على الشاطئ، وساروا بمدافعهم الرشَّاشة فوق الرَّمْل، ثمَّ اختفوا بين المباني. بعد قليل قُرعت

الأجراس في السفن والبوارج والطَّرَّادَات جميعها، وتزاحم الجنود حول الدرابزينات لمشاهدة العَلَمِ الإيطالي وهو يرفرف فوق القلعة السلطانية. أطلقت السفنُ قذائفَ الألعاب النارية، وسمح الجنرال سبينيللي للمرَّة الأولى منذ إبحارهم، بتناول كأس من البيرة مع طعام العشاء، كما وزَّع الكَهَنَة الذين يرافقون الأطقم الطبِّية هدايا من الصُّلبان المعدنية الصغيرة على الجنود تَذْكاراً لليلة النصر.

انتابتْهُ رغبة في الضحك مقرونة بالغثيان وهو يُحدِّث فاليرا عن ليلة النصر تلك، وضع يده على كَتِفِهِ، وخامره إحساس بأن نزيف الجرح ليس هنا، أزاح يده نحو صدره، تلمَّس الكتلة النابضة، وشعر بانشطار قلبه تحت كفِّه، جلدت ريح باردة كَتِفَهُ المصابة حتَّى سمع وجيب العَظْم الهشِّ من تحت الضِّمَادة، كان يتمنَّى أن يصرخ، حين لم يعد يفهم ما حدث، قالوا له إنه لا يمكن الشفاء من صدمة الحرب، وإن الألم أيقونة تَذْكار معلَّقة على جدار الروح تخترق القلب كرصاصة تحاول إخراجها فتُؤلِمكَ .. قد تُخيطُ جرحكَ وتغادر .. لكنْ، كلَّما هبَّت الريح يستيقظ الوَجَع، كيف يمكن أن يسرد لفاليرا في مذكِّراته الصحفية أن النصر يستوجب أن تَقتل بلا هوادة، حتَّى إنكَ قد تَقتل أُمَّاً في غرفة نومها؟! داهمتْهُ صورة حليمة وهو ينتزعها عن جسد أُمِّها، ثمَّ يُلقي بها إلى الشاحنة، لتَؤُول إلى جحيم المنفى .. صفعه السؤال: لماذا لا يستطيع أن ينساها؟.. وإذا نسيَها هل يمكن أن يُعتِقَهُ النسيم من رقص جديلتَيْها ..؟ هل

يمكن أن تغفر له الشمس والزهر والربيع وشدو العصافير ظاهرة حضورها..؟ هل يمكن أن يهادنه الألم، فيتواطأ قليلاً مع غرابة الحبِّ وفلسفته الذي يأتي مع الحرب والموت؟

***

في الليلة الأخيرة التي قضاها الجنود على ظهر السفينة، خمَّن ساندرو أن شعور الخفَّة الذي عصف بهم في عنبر الطعام بعد ما وصفوه بـ (العشاء الأخير) ليس بسبب نشوة الانتصار، ولا حتَّى بسبب كؤوس البيرة، بل على الأرجح لتفريغ شحنات القلق واستبعاد التفكير بما ينتظرهم صباحاً على ظهر كوكب الرمال المجهول. كانت ليلة مجنونة، تغاضى فيها الضبَّاط عن الهَرْج والمجون والرقص الذين تحوَّلوا بعد منتصف الليل إلى تقمُّص أدوار فتيات، يقبضنَ بأطراف أصابعهنَّ على أطراف تنُّورات وَهْمِيَّة، يُخاصِرُهُنَّ جنود آخرون، يصيحون بكلمات فاحشة من تلك التي تُقال في مواخير حَيِّ بريرا، أمَّا الكابتن فيري، فلم يتمالك نفسه أمام نشوة النجومية لمَّا سمع أحاديث القادة يصفونه بأنه لا يقلُّ مكانة عن كولمبس حين وطأ أرض أمريكا، وأن فتحاً عظيماً للأُمَّة الإيطالية تحقَّق على يدَيْه، يضع حَدّاً لعذاب المقهورين المهاجرين على أبواب نيويورك، مؤكِّدين أن الحكومة سوف تنحت له تمثالاً من البرونز في متحف الكابيتول العاري، وبدأ فعلياً في صياغة مدوَّنات افتراضية كان سيكتبها لاحقاً عندما تنتهي الحرب، لو لم يُنهِ حياته بالانتحار بعد أيَّام قليلة، عَقِبَ أحداث حَيِّ المَنْشِيَّة وشارع

الشطّ، كان سيتّخذ عنواناً لمذكّراته يقول: «هذا ما حدث لأوّل ضابط حطّ على أرض المستعمرة الطَّرَابُلُسِيَّة»، فكّر في مدى خسارة العالم لو لم يسمع شيئاً عن أعماله البطولية، لو لم يكتب عن مهمَّة قَطْع أسلاك التلغراف التي تربط طَرَابُلُس بالأستانة، تلك التي كان يستعين به أصدقاؤه من باشوات القلعة السلطانية لإصلاحها كلّما هبّت عاصفة، لو لم يطّلع قبل أن يقطع خطّ التلغراف على الرسالة التي أرسلها بسيم بك الدَّفْتَرْدَار إلى الباب العالي، ليُقنعَهم بالقرار الذي انتهى إليه اجتماع حكومة ولاية طَرَابُلُس مع أعيانها بإعلان حالة المقاومة، لن ينسى أن يُضمِّن في مذكّراته تكتيك المعركة بحسب ما أرسله بسيم بك في برقيَّته إلى الأستانة: «سيتمُّ نقل الأسلحة والجنود إلى جنوب طَرَابُلُس لتنظيم الصفوف هناك بعد إخلاء الساحل»، كما سيُضمِّنها أيضاً الرسائل الشخصية التي أرسلها بسيم إلى صديقه الوالي المعزول إبراهيم باشا يتحسَّر فيها على أيَّام ولايته، ويسرد له قصَّة إنقاذ الأسلحة التي وصلت على مَتْن سفينة أَدَرْنَة.

في تلك الليلة، كان بسيم بك الدَّفْتَرْدَار يقضي مساءً قلقاً رُفْقَة نشأت باشا وعدد من وجهاء وأعيان طَرَابُلُس وضواحيها، انتحى ركناً من البيت الذي اتَّخذتْهُ الحامية التركية في محلَّة (كُوشِة الصِّفَّار) مقرّاً مؤقَّتاً لها، واستغرق في التركيز الذي تتطلَّبه كتابة رسالة إلى الباب العالي مقتطفاً أبلغ عبارات التعطُّف والثناء، ليُقنعَهم بقرار المقاومة طالباً مزيداً من الأسلحة والجنود

والتموين، وكانت آخر رسالة استلمها موظَّف التلغراف تقول إن الطليان قد نزلوا في طُبْرُق، وما زالت معارك طاحنة تدور حول شاطئ بَنْغَازِي ودَرْنَة. حاول أن يسيطر على الإحساس بالدُّوَار والشعور المُدوِّي بالسقوط في بئر عميق وقد انقطع عنه حَبْل النجاة، تمنَّى لو أنه لم يعش حتَّى هذه اللحظة، لو أنه شاخ منذ زمن طويل ومات كقطٍّ هَرِم في سيلانيك أو قونية. لو أن التاريخ لا يذكر اسمه حين يتحدَّث عن آخر ولاية عثمانية في الطَّوْق الأفريقي. ازداد تشاؤماً لمَّا دوَّى صوت انفجار ضخم من جهة الميناء، وارتفعت ألسنة اللهب، لتتحوَّل السماء إلى لوحة حمراء، قال جندي الجَنْدَرْمَة الذي ذهب للاستطلاع:

- إنها الباخرة أَدَرْنَة، لقد أُحرِقَتْ بالكامل.

اكفهرَّ وجه نشأت باشا، وشتم بكلمات تركية ساخطة، واستغرق الوجهاء في موشَّح من الحَوْقَلَة والدعاء، أمَّا بسيم، فلم يُعلِّق بشيء، بدا كأنه يتوقَّع ذلك، واكتست ملامحه ببعض الرضا، لأنهم استطاعوا إفراغ السفينة من حمولتها في وقت مناسب، ففي اليوم الذي وصلت فيه السفينة أَدَرْنَة بعد أن قطعت المجال البحري الذي تُبحِر فيه سفن الأسطول الإيطالي، رافعة العَلَم الألماني، وعلى متنها خمسة عشر ألف بندقية ماوزر ومليونا خرطوشة وأسلحة أخرى أرسلتْها الحكومة التركية إلى طَرَابُلُس، للمحافظة على تأجُّج المعارك في خطِّ أفريقيا حتَّى تنشغل إيطاليا عن جبهة البلقان التي تخوضها تركيا بقتال مستميت، كان لا بدَّ من إفراغ حمولة

السفينة قبل اندلاع المعارك، وفيما هو في طريقه إلى الميناء لمعاينتها صادف شابًّا عشرينياً يقود جملاً محمَّلاً بغِرَارَتَيْن من الحِلْفَا، ويتبادل التحية مع شبَّان آخرين عائدين من مراكب صيد السمك، كان الوقت مساءً والشمس تستلقي فوق حِصن يوسف باشا، وتُلقي وَهجاً برتقالياً على برج الساعة وأقواس السرايا وذؤابات النخيل المسامتة للأسوار القديمة، شعر بسيم بك بالارتباك وهو يستوقفه، وأطرق قليلاً متفرِّساً في الجَمَل. بادره الشابُّ:

- نعم، يا سيِّدي، كيف أخدمكَ؟

- هذا الجَمَلُ، بِكَم تُؤجِّره؟

- ما نوع الحمولة؟ وإلى أين؟

- أسلحة، نريد إفراغها من هذه السفينة، ونقلها إلى عين زَارَة.

- متى تريد ذلك؟

مرَّت لحظات ثقيلة، وحاول بسيم بك أن يسيطر على مشاعر عدم الثقة التي ظلَّت سائدة بين حكومة الولاية والرعايا الليبيِّيْن، وطفت على سطح الذاكرة الفظائع كلُّها التي ارتكبها الأتراك في حقِّ السكَّان الفقراء، السجون والتعذيب والإعدامات بالخوازيق، الضرائب الضخمة التي تُفرَض عليهم لقاء الحماية من عدوٍّ مجهول، وفي المقابل السطو والنهب وحالات العصيان والتمرُّد والسُّبُل كلّها التي اتَّبعها الأهالي لانتزاع قُوْت يومهم، ما زال يذكر المجاعة التي أصابت البلاد ذات قحط، وكيف احتشدوا أمام قلعة الحكومة،

افترشوا الأرض أيَّاماً طويلة متلطِّفين الوالي أن يهبهم ما يسدُّ رَمَقَ أطفالهم، لكن الحكومة قابلتْهم بالرفض. لم يعفِ نفسه من المسؤولية، فهو الذراع التي تجمع الضرائب، وتحدِّد أوجه جبايتها وصرفها ومواعيد استحقاقها، ويضرب بذراع من حديد كلَّ مَن امتنع عن دفعها، تنبَّه إلى الفظائع المشينة كلِّها، هكذا فجأة وبصحوة متأخِّرة. وأدرك أيضاً أنه لا يمكن حتَّى في أشدِّ الحالات إلحاحاً واحتياجاً أن يضع ثقته فيمَنْ كان يَجلِدُهم بالسياط، فكيف سيثق بهذا الشابِّ الفقير المتبختر، ويأتمنه على الأسلحة وأسرار الدولة العَلِيَّة، سأله بتعالٍ متأصِّل:

- هل من المعتاد أن توافق هكذا بدون الاتِّفاق على الأجرة أو حتَّى أن تعرف مُحدِّثيكَ؟

أجابه الشابُّ باعتداد ودون أن يعكِّر صفو وسامته:

- أعرفك جيِّداً، سيِّدي الباشا الدَّفْتَرْدَار.

اعتدل في وقفته وحرَّك الطربوش الأحمر الكبير فوق رأسه الأصلع متقمِّصاً أقصى ما يستطيع من ملامح الصرامة، لكن هاجساً ما جعله يتفحَّص ثانية ملامح الشابِّ، متفرِّساً في العينَيْن المحفوفتَيْن بالرموش الكثيفة والتقاطيع الدقيقة المتناسقة، والنقرة المحفورة في ذقنه السمراء. وبشبه يقين سأله:

- وجهكَ مألوف، هل التقينا من قبل؟.

- نعم سيِّدي، اسمي بشير، جئتكَ مع ثلاثة من رفاقي بعد تخرُّجنا في المدرسة الرشدية، كنَّا نريد

الانضمام إلى الجيش، لكننا لم نكن محظوظين. والآن إذا رغبتَ سأُنزل حمولة الجَمَل في سقَّالة الحِلْفَا، وأعود في الحال، حيث ترسو السفينة.

أطرق بسيم بك مشيحاً بوجهه تجاه البحر، مُخبِّئاً ما يعتريه من إحساس بالخجل ممَّا حدث في عهد الوالي إبراهيم باشا لمَّا اتَّضحت المطامع الإيطالية، اقترح بسيم بك فتح باب التجنيد لتعويض الجنود الذين أُرسِلُوا إلى اليمن، لكن حكومة حقِّي رفضت تبذير الأموال على جيش لا ضرورة له، كان بسيم بك قد استقبل أفواجاً من طلَّاب المدرسة الرشدية في مقرِّ الحامية، وأخضعهم الضبَّاط لاختبارات القوَّة والنباهة، ثمَّ أبلغهم في يوم آخر بأن طلباتهم مرفوضة، حاول أن يستبعد مشاهد الخيبة التي علقت بوجوه الشبَّان اليافعين وقد احتشدوا في مكتبه ثمَّ غادروا بحزن. شعر بازدراء لنفسه، قال:

- أظنُّكَ تحتقرني الآن.

- لم تُجِبْنِي، يا سيِّدي الباشا، متى نبدأ؟

قد يكتشف الإنسان أنه كان ضحية غبائه في وقت ما، ذلك يَحدُث غالباً مع التقدُّم في السنِّ أو التعرُّض لإحدى الصدمات. كانت صدمة الرَّمْل في الأرض الطَّرَابُلُسِيَّة مريعة، ولمَّا هبط الجنود في الخامس من أكتوبر، من على متن القوارب الصغيرة التي أقلَّتْهم من السفن، انتابهم إحساس مُرهِق بالدُّوَار والعطش والجفاف والغباء، أطلقوا شتائم مكتومة على الحكومة، ووضعوا أصابع سبَّاباتهم بشكل عمودي على جوانب رؤوسهم، وهم يضحكون بمرارة، إذْ إن الصورة العجائبية للبساتين والحدائق التي رسموها في خيالاتهم وصوَّرتها لهم الصحف والقصائد والأغاني، وأبحرت من أجلها حملة من مئة ألف جندي وستَّة وثلاثين ألف مدرَّعة، وخمسة وثمانين مدفعاً، كانت صورة وَهْميَّة، وليس لها أيُّ وجود على الإطلاق. كان على ساندرو أن يُكيِّف نفسه مع الكذبة الكبيرة، مُعزِّياً خيبته بالانتصار السريع الذي حقَّقتْهُ الحملة دون مقاومة تُذكَر، رَغْم تهامس الضبَّاط بما رصدتْهُ عيون مدفوعة الثمن عن تحشيدات تركية ليبية في مناطق جنوب طَرَابُلُس. على أيِّ حال جرت الترتيبات على نحو جيِّد، وأصبح لدى ساندرو في معسكر بُوْمِلْيَانَة الذي كان أحد مقرَّات الحامية التركية، سرير وخزانة ثياب وصندوق ذخيرة لاستخدامه ككرسي، واستطاع بمفاوضة ناجحة إقناع جندي توسكاني يحتلُّ السرير المجاور له أن يبادل سريره لمارغريتي، لكن مشرف العنبر الضابط

شافيز اكتشف المبادلة، وعدَّ ذلك تمهيداً لعلاقة مشبوهة، في تلك الليلة وضعهما تحت مراقبته القصوى حتَّى الصباح، ثمَّ نام متهالكاً عن وجبة الإفطار.

على مائدة الإفطار كان الجنود في وضع أفضل بعد إفراغ حمولة السفن من المؤن والأسلحة، وترتيب الوضع الداخلي في المعسكرات، وللمرَّة الأولى يُقدِّمون لهم إفطاراً جيِّداً تضمَّن شرائح السردين والجُبْن المدخَّن ومربَّى التوت وفواكه مجفَّفة، وتصاعدت من العنبر رائحة الخبز الطازج والقهوة. اقترب الجندي التوسكاني، وجلس في المَقْعَد المقابل لساندرو مقتحماً الحديث الدائر بينه وبين مارغريتي، وسأل ساندرو دون أيِّ مقدِّمات:

- كنتَ مضطرباً في نومكَ البارحة، هل تعاني من مشكلة؟

تلعثم ساندرو وشعر بالإحراج، أجاب مرتبكاً:

- أنا؟ ماذا حدث؟ هل كنتُ أحلم؟

- تتقلَّب في الفراش، تهذي وتُحرِّك ذراعَيْكَ وساقَيْكَ. لا يمكنني النوم قريباً منكَ، ربَّما الضابط شافيز على حقٍّ.

كان ساندرو على وشك أن يعتذر من الجندي، ويعده بأن يكون أكثر هدوءاً في نومه، لكن تلميحه الأخير جاء صادماً، فانفجر ساخطاً:

- اذهب لتنام في غاريبالدي.

نهض التوسكاني غاضباً، ورَكَلَ المَقْعَدَ بقدمه،

تدافَعَا بصدرَيْهما، وعلت الأصوات الخشنة ساخرة ومتحمِّسة ومطالبة بالعِرَاك:

- اضربْ.

- هيه، أنتَ، اضربْ، ماذا تنتظر؟

يتعالى صياح الجنود يُكوِّرون قبضاتهم في الهواء، ويطلقون عاصفة من الضجيج المُستفزِّ:

- هيَّا اضربْهُ.

- هو جبان.

- لا، بل مُخنَّث.

استمرَّ التدافع بالصدر، يحاول كلاهما أن يُحافظ على وضعه كمدافع عن نفسه تجنُّباً للعقوبة من الضبَّاط، شعر ساندرو أن الوضع أصبح سخيفاً، وأن الانضباط الزائد يتحوَّل إلى خنوع، فكوَّر قبضتَيْه، وأطلق ذراعَيْه على مداهما بكلِّ ما يحمله من حَنَق ليقابله الآخر بلكمات مضادَّة، حينها تدافع الجنود حولهما، وتبادلوا بنذالة لكمات عنيفة بلا مناسبة، دون تحديد الطرف الذي يناصرونه، مُدعِمِّين حرارة المعركة بالصراخ المتحمِّس.

كان من المفترض أن تتولَّى شركة الحفر التي ما زالت في عرض البحر بانتظار وصولها، عملية حفر الخندق الذي قرَّر الجنرال كانيفا آمر الحملة أن يضربه حول المدينة تحسُّباً للهجوم الذي قد تشنُّه القوَّات المحتشدة في جنوبها، أمَّا بعد تلك المعركة التي تلاكم فيها الجنود قرابة ساعة، وحطَّموا أواني الطعام والمقاعد، ومزَّقوا الكتفيات العسكرية التي تحمل الرُّتب الضئيلة،

جاءت التعليمات بإرسالهم جميعاً لموقع الحفر.

- لا يمكنكَ أن تترك ذكوراً أقوياء في مكان معزول بلا عمل.

قال كانيفا مخاطِباً الضبَّاط، فاقتادوا الجنود تحت لهيب الشمس، يحملون الفؤوس والمجارف ورُزماً من أكياس المشمَّع الفارغة إلى حيث حدَّد القادة مكان الخندق، رشقوا الأوتاد، ونثروا الغبار الأبيض لترسيم الحدود، وانهمكوا في الحفر بانفعال وتذمُّر، لامس ساندرو، للمرَّة الأولى وهو غارق في الغبار والعَرَق، حقيقة صُندُوق الرَّمْل الغريبة، المَلمَس الوَهْمي للرَّمْل وهو يتلاشى من بين الأصابع، مزيج الشفافية والقتامة والهشاشة والكبرياء والتشكُّل من بعد الانهيار، تعجَّب من دقَّة وصف سالفيميني لأرض طَرَابُلُس رَغْم أنه لم يعاين هذه الكُثْبان الشهباء وهذا الغبار المتعنِّت والنيران المستعرة تحت الأقدام، وكلَّما استغرق في الحفر وتمرَّغ في الغبار وتذوَّق طَعْمه ورائحته، تلاشى إحساسه بكينونة الجسد، وتحوَّل دمه وأنفاسه ومشاعره إلى كتلة من الكلس الثقيل تترسَّب في عروقه، وتُحيله إلى كائن مساميّ شَرِه للامتصاص. في وقت لاحق لاحظ أنه لم يعد يشعر بالكراهية تجاه الجندي التوسكاني، وعندما تقابلا في موقع الحفر في استراحة الغذاء شعر به كما يشعر تجاه كيس رَمْل متحرِّك.

كان حجم الخندق يتَّسع ويبتلع الأجساد المتعرِّقة المنهَكَة، ويستنزف طاقة الشعور بالألم والخوف والحبِّ والكراهية، فيلوذ الجميع

بالصمت والانطفاء، وكلَّما كبر الخندق يكبر الشعور بالانصهار في كتلة المجموع، وتتلاشى حواجز الاتِّصال الفيزيائي بين الجنود، لتُحيلهم إلى آلة في شكل أُفْعُوَانَة عظيمة، يتحرَّكون فيها كمجموعة تروس تعمل في صمت بلا مشاعر أو ضجيج. وعلى مدى الأيَّام التي قضاها الجنود في العمل الشاقِّ تحت لهيب الشمس والغبار، أصبح بإمكانهم أن يصفعوا بعضهم البعض دون اعتراض، وأن يُبوِّلوا على بعضهم من دون تذمُّر، وأن يدوسوا جندياً مريضاً بلا تأنيب ضمير، ومن بين سُحُب الغبار وصوت ضربات الفؤوس وقَعْقَعَة المجارف والضجيج، كان على الجانب الآخر من الخندق في حَيِّ المَنْشِيَّة أطفال يلعبون، يركضون حُفاة في الأحياء الفقيرة، كهول يجلسون عند عَتَبَات المساجد، نساء يُثرثرنَ أمام أبواب البيوت، كانت هناك قطط تموء ورائحة شاي تتسرَّب من النوافذ، وطعام مسلوق بالبصل والبهار، استطاع ساندرو أن يسترق النظر إلى السكَّان وهم يمارسون حيواتهم على الجانب الآخر دون اكتراث، وانتابتْهُ الشكوك في أن صداماً يمكن أن يَحدُث في هذا المكان. ذات صباح وفيما كان ينحني على حافَّة الخندق، يستلم أكياس الرَّمْل من الحفَّارين، ويُرتِّبها فوق بعضها البعض على هيئة وسائد للحماية، تتخلَّلها فتحات للمدفعية، سمع من خلفه صوتاً حادَّاً يصرخ بغضب، التفت مصعوقاً بذهوله، كانت فتاة يافعة بجمال أصيل، تشير بإيماءات غاضبة، وتحاول تمرير حمارها فوق الألواح الخشبية التي صُفَّت فوق الخندق كجسر للطوارئ، لكن الحمار رفض العبور، «حمار على أيِّ

حال»، قال ساندرو في نفسه، واقترب محاولاً دفعه، لكن الفتاة صرخت ثانية، بمشاركة شقيقها الصغير الذي يعتلي الحمار ويُمسك باللِّجَام، وأشار كلاهما بجِدَّة إلى دَوْرَق الحليب الذي انزلق من مكانه، واندلق جزء منه على البَرْدَعَة، شعر بأنه ارتكب جريمة لن تغفرها الفتاة الحسناء، «صار لديه جرائم أكبر في وقت لاحق لن تغفرها له».

حاول أن يُصلِح الأمر، أن يفعل شيئاً لتمرير الفتاة، إلى وجهتها قبل أن ينتبه الجنود في الأسفل، لكن ضجيجها كان عالياً، فأطلُّوا برؤوسهم كقنادس برِّيَّة، مذهولين بجمالها الصاعق. قَوَام منحوت مثل تمثال روماني، جدائل سوداء متدفِّقة وفم مصنوع للقُبَل، هكذا تبادل الجنود التعليقات وتعالت تأوُّهات وقحة، وبدافع من غَيْرة امتلاك ليس لها علاقة بالنخوة، دفع ساندرو بقَدَم حذائه العسكري أكياس المشمَّع المَحشوَّة بالرمل إلى قاع الخندق أمام صيحات اعتراض الجنود، دفع مزيداً من الأكياس فوق بعضها البعض حتَّى استوت الأرض على الجانبَيْن، لكن الحمار رفض بعناد كاسح أن يعبُرَ فوق الأكياس، تفتَّق ذهنه (أي ساندرو وليس الحمار) عن فكرة ردم الأكياس بطبقة من الرَّمْل لاستعادة الأرضية لاستوائها الطبيعي، أهال الرَّمْل فوق جسر الأكياس، فتنازل الحمار عن عناده أخيراً، وعبر بهدوء مع الفتاة وشقيقها. (يظلُّ حماراً) تمتم ساندرو ثانية، ولمَّا أفاق من غشيته وشاهد الأكياس الثقيلة المتكوِّمة في القاع بانتظار إخراجها وتصفيفها من جديد، تساءل (متجنِّباً التفكير بالحمار) كيف لم يخطر بباله أن يهيل طبقة الرَّمْل على الجسر

الخشبي ويُوفِّر على نفسه هذا العناء كلَّه؟!

للمرَّة الأولى يشعر منذ أن وطأ أرض طَرَابُلُس أن هنالك شيئاً فارقاً قد حدث، ليس فقط لأنه شاهد فتاة بجمال روماني أصيل على أرض أفريقية حارقة، بل لأنها كانت أقرب إلى نَمِرَة متوحِّشة، تتفقد مَحميَّتها الطبيعية .. وكانت عيناها المتوثِّبتان المشتعلتان بالغضب والجموح شيئاً يستحقُّ التفكير واختلاق قصص غرائبية تُروَى في تورينو بمقاهي المحاربين القدامى، في تلك الليلة سمحوا لهم بكتابة الرسائل إلى ذويهم، تزاحم حول سريره الجنود الأُمِّيُّون يُملون عليه رسائل معظمها إلى الأُمَّهات والحبيبات. كان الجندي التوسكاني قد نسيَ تماماً العِرَاك الفائت، وطلب إليه أن يكتب رسالة إلى زوجته، قال إنه قضى معها شهراً واحداً فقط، وأملى عليه عبارات ملتهبة، لم يجد لها ساندرو ترجمة محتشمة، فكتبها كما هي، تاركاً الإحراج لمَنْ سيقرؤون للزوجة الرسالة الساخنة، على أيِّ حال، تداركت إدارة الحملة لاحقاً هذه المعضلات، ووزَّعت على الجنود البطاقات البريدية المصوَّرة كتعويض للأُمِّيِّيْن عن الرسائل المكتوبة. بعد أن انفضَّ الجنود إلى أَسِرَّتهم، كتب ساندرو ثلاث رسائل، إحداها لجيا جارسيندا، مُضمَّنة بأشواق حارَّة توهَّجت على خلفية رسالة التوسكاني، وأخرى إلى الآنسة كريستين تحمل انطباعاً شخصياً عن حالة الهدوء في طَرَابُلُس، ورسالة اطمئنان معتادة لأُمِّه، ولمَّا كانت الرسائل بأعداد هائلة كما هو عدد الجنود بعشرات الآلاف، ولمَّا كان الضبَّاط

المسؤولون يشعرون بالضجر ولا تثير اهتمامهم أكداس الورق المَحشوَّة بالتفاهات، فإن الرسائل كانت تُنقَل عبر البحر وتُوزَّع إلى مكاتب البريد دون تفتيش أو اهتمام. وقبل أن يُسلِّم رسائله إلى مكتب بريد المعسكر، عاد إلى المفكِّرة ذات الغلاف الجِلْدِيّ، حيث الرسائل التي كتبها ريكاردو لليزا، اختار رسالة مقتضبة يقول فيها:

«كلُّ شيء على ما يرام، أشتاق إليكِ، سوف أكتب لكِ رسائل مطوَّلة في متَّسع من الوقت»،

انتزع الرسالة من المفكِّرة، ودسَّها في المظروف، وكتب على ظهره العنوان:

(ليزا بسكوني- جادَّة 8- شارع 1- فيرونا، المرسِل ريكاردو ماركيتي).

استلقى ساندرو متهالكاً وهَرَش شَعْره من الرَّمْل والحشرات، وكان الجندي التوسكاني جالساً على المَنامَة يسند ظهره إلى الحائط، ويغمس أصبعه في مَرْهَم حروق الشمس، ثمَّ يمرِّره على بُقع حمراء ملتهبة على أنفه وخَدَّيْه، سأل بتودُّد:

- لديكَ سيجارة؟

ناوله واحدة من جيب سترته، وانحنى ليشعلها له مُخبِّئاً الوَهْج بكَفَّيْه، كان قد عرف للتوِّ أن اسمه فرانش، لمَّا كتب له الرسالة وذيَّلها بتوقيعه، «فرانش فيليس». تركه يدخِّن سيجارته، وانشغل بتقشير حبَّات من الفول السوداني وهبها له فلَّاح عجوز من بساتين بُوْمِلْيَانَة لمَّا ذهب يوزِّع منشوراً يأمر الأهالي بتسليم السلاح، صدر عن الجنرال رافائيل ريتشي المغرم بكتابة المناشير، خاصَّة وقد أصبح والي طَرَابُلُس بمرسوم مَلَكِيٍّ. قال التوسكاني من بين سُحُب سيجارته:

- أصبحتَ تنام بهدوء.

فَصَعَ حبَّة ناضجة، وألقى بقشرتها على الأرضية المبلَّطة، ثمَّ دعسها بقدمه، فأصدرت صرصرة مستغيثة، قال وهو يبتلع لُبَّها:

- آمل هذا، لا أحبُّ أن أُسبِّب الإزعاج للآخرين، هل ترغب بتذوُّق الفول السوداني؟

مدَّ يده والتقط حبَّة قائلاً:

- يبدو أنكَ على علاقة جيِّدة بالطَّرَابُلُسِيِّيْن، هل هي الفتاة بائعة الحليب؟

- أوه لا، أنتَ تمزح بالتأكيد، أهداها لي فلّاح في بستان قريب، كنتُ قد سلّمتُهُ منشور الجنرال رفائيل، أخذ منّي الورقة ولفَّها في شكل قرطاس، ملأه بالحبوب، وناولني إيّاه من دون تعليق.

- لكنها مذهلة.

- لا بأس بها.

- أقصد الفتاة.

- الفتاة الغاضبة!! ضحك بدون معنى واضح، وأضاف: بعض النساء يجعلهنَّ الغضب أكثر جاذبية.

- وُلدتُ ونشأتُ في ريف فينشي، الفلّاحات يغضبنَ لأتفه الأسباب، لكنهنَّ يقطرنَ سِحْراً وجمالاً.

سكت قليلاً ثمَّ قال:

- كانت أُمّي فلّاحة حقيقية، أمَّا أبي، الحقُّ يقال، إنه لم يُفلح في أعمال الزراعة يوماً، عمل مُسوِّقاً للبرتقال مع مصانع للشراب المحلِّيّ، في وقت لاحق ترك فينشي، والتحق بثوَّار القمصان الحمراء مع الزعيم غاريبالدي، قاتل معه ضدَّ الفرنسيِّيْن في روما، وبعد فشل الربيع الإيطالي وانتصار الدولة البابوية بحماية الحِرَاب الأجنبية، أصبح أبي مُطارَدَاً ومحكوماً بالنفي، أرادت أُمّي أن تُبعدَنا عن المغامرات الثورية، أن تُكرِّس فينا تقاليد الفلّاحين، وتغرسنا في الأرض كما تغرس شجرة زيتون مُعمَّرة، هكذا كانت تقول، فأَخرجَتْنا من المدارس، ووضعتنا وجهاً لوجه مع الجواميس والبطّ والخِرَاف، ولمَّا عاد أبي كان يشعر بالإحباط، لأن

الحكومة الجديدة رفضت تجنيد الثوَّار ضمن الجيش النظامي، قالت إن الجيش له شروط وقوانين، لن يستطيع الثوَّار المتمرِّدون الالتزام بها، ولهذا عليهم أن يعودوا إلى سابق أعمالهم، أَليس الأمر مُخيِّباً ومُوجِعاً؟!

قذف ساندرو حبَّة أخيرة إلى فمه، ثمَّ لَمْلَمَ القرطاس في شكل كرة رماها بعيداً عنه، قال:

- لا تبتئس يا صاح، النكران صفة أصيلة عند أصحاب السلطة.

- لهذا كان حريصاً أن يرانا في صفوف الجيش، جئنا متطوِّعين إلى لجنة الفحص أنا وشقيقاي، هما الآن في فوج البرساليري، ربَّما تلتقي بهما، نحن متشابهون تماماً.

شعر ساندرو أن التوسكاني لديه هامش غير معقول للثرثرة، إلَّا أنها تبدو مثل عملية نَتْف الشَّعْر مزعجة وتبعث على الاسترخاء والنوم، لم يعد باستطاعته أن يخفي تثاؤبه، وفيما هو يوشك أن يُسدِل عليه الغطاء لينام، قفز على صوت وابل من الرصاص أيقظ الجنود فزعين، رصاص كثيف يأتي من خارج المعسكر، ويكاد يخترق الجدران، وفي لحظات انقلب المعسكر إلى حالة من الفوضى، وتناطحت رؤوس الجنود وهم يبحثون عن أحذيتهم في الظلام، وكانت قوَّات الحرس قد بادرت بإطلاق مضادٍّ من مدافع رشَّاشة، ووجَّهت أعيرتها النارية بشكل عشوائي نحو طوابي الصَّبَّار الهندي التي تُسيِّج البساتين، بعد قليل كانت الأسلحة الثقيلة والخفيفة جميعها مُهيَّأة للإطلاق، ويقف الجنود بكامل عتادهم

خلف المتاريس متأهِّبين للمواجهة، لكن صوت رصاص المهاجمين قد تضاءل بعد انقضاء ساعة، ثمَّ اختفى تماماً، تابع الحُرَّاس إطلاق النيران العشوائية بشكل متقطِّع، ثمَّ أخذوا يطلقون قذيفة مرَّة كلَّ عشرين دقيقة لنفي الشكوك حول احتمال الشعور بالخوف، ولم يُسمَح للجنود بالنوم في تلك الليلة، ظلُّوا يجوبون فناء المعسكر ببنادقهم، يُرهفون السَّمْع إلى صرير حشرات ليلية ونعيب بوم ونُباح كلاب بعيدة، أمَّا ساندرو، فقد قضى الليلة مع فصيل من الجنود مستندين إلى السياج في حالة من التأهُّب، وهم يستمعون إلى حكايات مرعبة، رواها لهم الجندي التوسكاني تحت السماء الدامسة، عن مذابح شهدها والده في حروب صِقِلِّيَة ونابولي، وعن مومياءات هربت من متحف بومبي، وعن قطط سوداء حلَّقت فوق سماء سردينيا، وعن فتيات شنقنَ أنفسهنَّ بحبال الغسيل، وعن شبح السيِّدة بيانكا الذي يُضلِّل السائقين في الليالي الماطرة، وحكى لهم أيضاً في هذه السانحة الملائمة عن الثور الصِّقِلِّيِّ المصنوع من البرونز الذي يبتلع الأسرى والسجناء، ثمَّ يُخرِجُهم رماداً.

- هل تعرفون كيف يُعاقَب الأسير في صِقِلِّيَة؟

سمع تسارع أنفاس وطَقْطَقَة أسنان في غمرة الظلام الدامس، تابع دون أن ينتظر ردّاً:

- لديهم ثور مرعب وكبير جدّاً، هكذا ..

مَدَّ ذراعَيْه على اتِّساعهما، فاصطدم بكَتِف جندي في الظلام جعله يصرخ هلعاً ويقفز من مكانه، فيما تابع التوسكاني موجِّهاً حديثه إلى

الجندي الفزِع:

- هو مصنوع من البرونز، وله باب في مؤخّرته، يُدخِلُون الأسير، ويُقفِلُون عليه، ثمَّ يشعلون النار .. نار مستعرة تلتهم أكوام الحطب المكوَّم في الأسفل، فيسخن هيكل الثور إلى أعلى مداه .. بإمكانكَ أن تتخيَّل مدى حرارة المَعدِن وهي تضطرم .. أن تتخيَّل جسد السجين وهو يحترق .. يحترق في الداخل .. ببطء .. ببطء شديد .. رُوَيْدَاً رُوَيْدَاً .. ويصرخ صرخاته المفجوعة، هل تعرف كيف يبدو صوت الصراخ؟

ولم ينتظر الإجابة أيضاً، مُفترِضاً أن الجندي كان يهزُّ رأسه نافياً، فتابع:

- يتركون فتحة في فم الثور، عندما يحترق جسد الرجل تخرج صرخاته من الفم مع الدخان، هكذا:

«همووووو ..».

صاح فجأة بصوت مُفزِع، فقفز الجنود مذعورين في الظلام، تابع من دون اكتراث:

الأمر غريب جدَّاً، يبدو كأنه صراخ الثور، لسوء الحظّ أن ذلك لم يعد موجوداً الآن.

قال متحسّراً، وارتفع صوت الأذان من مسجد قريب، شعر ساندرو ببعض الارتياح، لأن الصباح قد حلَّ، وانتهى الكابوس، (كابوس الهجوم)، لكن ذلك لم يمنع أن يفكّر للمرَّة الثانية كيف يمكنه أن يُجريَ مفاوضات لاستبعاد التوسكاني من المَنامَة المجاورة له، وكانت فِرَق الاستكشاف التي خرجت لتمشيط المكان، قد أعلنت عن وجود ثلاث جثث مُضرَّجة بالدم لمقاتلَيْن عربيَّيْن وآخر تركي على

كُثبان الرَّمْل قريباً من المعسكر، وحملت الأخبار أيضاً نبأ هجوم آخر على معسكر مقطع الحَجَر في قَرْقَارِش لم يُسفِر عن قتلى. استدعى الأمر مخاطبة هيئة الجيش في روما للإسراع بإرسال المزيد من التعزيزات، ولمَّا حلَّ يوم السابع عشر من أكتوبر اصطفَّ جنود تمَّ اختيارهم عشوائياً من المعسكر، من بينهم ساندرو لاستقبال قوَّة قَوَامها أكثر من أربعين ألف جندي إيطالي وصلت إلى الميناء، وتمَّ توزيعها لدَعْم المعسكرات، كما وصلت أيضا قوَّة من الكلاب السردينية المدرَّبة. أُعيد تأهيلها في المعسكر بشكل ممتاز، لتتمكَّن من مطاردة الأعداء، وَضعوا لتدريبها دُمىً ترتدي طرابيش حمراء وملابس متَّسخة لجنود أتراك عثروا عليها في مخلَّفات المعسكرات المهجورة، وعندما أطلقوها في الليل هاجمت الجنود الطليان الذين خرجوا لقضاء حاجاتهم في ركن مُنزوٍ. «هكذا هي الكلاب»، نَعَتَهَا الضابط شافيز غاضباً.

مضت الأيَّام العشرة التالية للهجوم على معسكر بُوْمِلْيَانَة رتيبة دون أيِّ أحداث تُذكَر، وبشيء من التفاؤل شعر الجنود أن جهودهم في حَفْر الخندق ذهبت سُدىً، إذ إن الأهالي الطَّرَابُلُسِيِّيْن بدوا مسالمين ومُرحِّبين، وعادوا لفَتْح دكاكينهم الفقيرة في شارع سيدي حمودة ومحلَّة كُوْشِة الصِّفَّار، بل إنهم قاموا بتسليم أسلحتهم إلى الحامية الإيطالية، كانت أسلحة قديمة وبنادق صيد بدون خراطيش، كافأهم الإيطاليون بعلب السردين وسيقان الكعك الجافَّة وبعض السُّكَّر، لكن هذه الطمأنينة لم

تمنع من زرع جنود المشاة في الخندق بشكل تناوبي للحراسة والاستطلاع، استيقظ ساندرو من مناوبته في الخندق، شعر بالهَلَع لمَّا وجد نفسه نائماً فوق أكياس الرَّمْل وبندقيَّته ملقاة إلى جانبه، وشكر السماء أن أحد الضبَّاط لم يكتشف ذلك، بحث عن رفاقه، فشاهد التوسكاني يُشعِل النار في خشب اقتلعه من صُندُوق ذخيرة، ويضع عليها إبريق الشاي، ثمَّ وضع أضلاعاً من الكعك الجافِّ في القدح، وسكب فوقه عبوة حليب، اغترفا المزيج بالملاعق الخشبية، واحتسيا الشاي، كان على الفرقة الأخرى أن تصل في هذا الوقت لتتبادل معهم الموقع، لكنها تأخَّرت، لم يشعر بالتذمُّر على أيِّ حال، فالوقت ما يزال باكراً ويغمره إحساس مُنعِش بالحرِّيَّة، يشبه طَعْم التخييم في العراء، تسلَّق أكياس الرَّمْل، ووقف مراقباً بفضول. كان الصباح بهيجاً والهواء خفيفاً برائحة النَّعْنَاع، وحلَّقت حمائم قمرية فوق أشجار النخيل، ومن بعيد ارتفع ضجيج السَّقَّائين وهم يحملون الماء على الحمير من سَبَّالَة بُوْمِلْيَانَة إلى البيوت، شاهد الحمير تسير بانسجام في المقدِّمة، ومن خلفها تتضاحك فتيات بملابس رَثَّة وجدائل طويلة، سرعان ما تفرَّقْنَ واختفيْنَ واحدة تلو الأخرى في الأزقَّة الضيِّقة وبين طوابي الصَّبَّار، لم يبقَ إلَّا حمار وحيد تتعقَّبه الفتاة بائعة الحليب برُفْقَة شقيقها، ما إن رأتْهُ حتَّى أشاحت بوجهها، وزمَّت شفتَيْها بعبوس مثير، كانت تقترب منه بخطوات ثابتة، وهو يقف على ناصية الطريق مرتجفاً مثل طائر بلَّله المطر، فكَّر أن يُلقيَ عليها تحية الصباح، (بونجورنو سنيورينا) همس

في سرِّه، فتسارعت دقَّات قلبه كأنه مُقبِل على عملية انتحارية .. اقتربت .. اقتربت أكثر حتَّى لم يعد يفصلها عنه إلَّا خطوات .. تأمَّلها باندهاش وهي تسير برصانة مَلِكَة: جديلتاها الراقصتان، شفتاها الشقيَّتان المزمومتان، نظراتها المثبَّتة باتِّجاه الحمار أمامها، كانت المرَّة الأولى التي يحسد فيها حماراً، وتمنَّى لو تَحدُث معجزة من نوع ما، أن يسقط الحمار في الخندق .. أن يَهطِل المطر .. أن يفيض الخندق بالماء فتصرخ به مستنجدة .. أن يقفز إلى القاع الموحِل، ويحمل الحمار فوق كَتِفَيْه .. وكانت المرَّة الأولى أيضاً التي يتبادل فيها الدَّوْر مع حمار. لكنها مضت .. دون أن تشكره .. دون أن تحفل بأُمنيَّاته .. دون أن تكترث بالوحل أو بثِقَل الحمار على كَتِفَيْه .. فكَّر بأُمنيَّاته السابقة كلِّها .. حبيباته اللاتي يفاضل بينهنَّ، فيتوارى خجلاً من أوهامه. لكن هذه الفتاة الصغيرة عاقدة الحاجبَيْن المتمالكة نفسها باقتدار، جعلت قلبه يرتجف رعباً وحُبَّاً، وقبل أن تتوارى وجد نفسه يردِّد بيتاً من قصيدة دانتي: «الجمال هو ما يُشعِل الروح»، ولمَّا أوشكت أن تختفي عند نهاية طابية الصَّبَّار استدارت وقالت شيئاً بلغتها لم يستطِع أن يفهمه، شيئاً ظلَّ يتردَّد في الفضاء الشاسع من حوله دون أن يستطيع التقاطه مرَّة أخرى.

في الثالثِ والعشرينَ من أكتوبر

والشمسُ تميل إلى الغُروبِ

أخذتْ رياحُ الجنوبِ تَغشَى المدينة

وارتفعَ صوتُ المؤذِّنِ

وخرَّ المؤمنون سُجَّداً ضارعِين لله «كُنْ معنا»

وفي القِلَاع عَبَسَ الطَّرَابُلُسِيُّ المُعمَّمُ في وجهِ الأغرابِ وقطَّبَ

وفي المنازلِ عَلَتْ أصواتُ المُصلِّياتِ عبرَ شبابيكِ النوافذِ

ورَغْمَ اللعناتِ، والصَّلواتِ، والنَّظَراتِ الغاضبةِ، العابسةِ

صاحَ الغُزاةُ من فوقِ مُدمِّراتِهِم في صوتٍ كالرَّعدِ:

«لقد عادَ أحفادُ الرُّومانِ»

الصحفي فرانسيس ماكولا 1911

تنكَّب ساندرو بندقيَّته الكاركانو وجِرَاب أمتعته وقُربة ماء شبه فارغة، وفيما هو على وشك مغادرة الخندق والتوجُّه إلى المعسكر مع بقية فصائل المشاة، اندلعت زوبعة من الرصاص الكثيف من خلف الكُثبان الرَّمليَّة التي تُطوِّق المدينة من الجنوب، بدا الأمر مُحيِّراً، حتَّى إن أكثر الضبَّاط حُنْكَة احتاج إلى بضع دقائق لاستيعاب فكرة أن يكون هجوماً من الأتراك أو العرب، سارع بالقفز إلى الخندق، وتكدَّس فوقه أربعة جنود، خمَّن أنهم مثله يخوضون مواجهتهم الأولى، بدا ذلك من طريقة ارتمائهم على الأرض كدجاج خانع، ضاربين بعرض الحائط قواعد (دريل) لتدريب المشاة كلّها، تلك التي خضعوا لها طيلة عام كامل حول كيفية الانبطاح أرضاً بقرار واعٍ. لقد تذكَّر الآن أنه ارتكب خطأً جسيماً لا تغفره قوانين الجندية، مُثبتاً أنه كائن عفوي يتحرَّك وَفْق ما تُمليه غريزة البقاء. ولمَّا سمع الأمر من القادة بإطلاق النار تمنَّى للحظات أن يَفقِدَ وعيه، كانت أُمنيَّة سخيفة، وليس هذا وقت البوح بها، كان أيضاً مندهشاً من سرعة تنفيذ الجنود لأمر الإطلاق، وخامره إحساس بأنهم كانوا مُدرَّبين أكثر منه وضالعين في مهمَّتهم الجديدة بتفانٍ عجيب، وفيما هو يُقلِّب عينَيْه في الجدار الرمادي الذي تشكَّل من الغبار والدخان والزوابع الرملية الناتجة عن انفجار القذائف في الأرض، مرَّت قذيفة مُدوِّية فوق رأسه مثل العاصفة دفعت قُبَّعته من مكانها، وأوقعتْها أرضاً، صاح فيه قائد الموقع بحِدَّة:

- ماذا تنتظر، أيُّها الجندي الوغد؟

أسند بندقيَّته على أكياس الرَّمْل، ألقَمَهَا بأصابع مرتبكة، وسحب الزناد متجاهلاً الصدمة القاسية لارتدادة البندقية على عظام كَتِفِهِ، كرَّر ذلك بطريقة آلية، وسرعان ما اندمج في مهمَّته، وتخلَّص من رهبة الاتِّصال الأوَّل بالنار وتلك الهُوَّة المخيفة ما بين المتوقَّع والحقيقي، صار يُطلِق من دون ارتباك، ويشاهد بانبهار مخلَّفات الرصاص الفارغ وهي تتكوَّم بين قدمَيْه. بعد لحظات لم يعد يشعر بشيء، حتَّى ذلك التردُّد اللولبي الذي يحيط بكتلة الرأس ويتعاظم طنينه في الأُذُنَيْن، كان قد اختفى تماماً، وأصبح رأسه فارغاً كما ينبغي لجندي زائل. ولا يزال الضابط يصيح فيه بإصرار:

- فوكو!

كان قد أطلق ثمانيَ رصاصات دفعة واحدة، لكن شيئاً لم يتحرَّك على المدى باستثناء حُفر صغيرة تتفتَّح في الرَّمْل مثل زهور من النار، صاح فيه ثانية:

- فوكو! اضربْ! .. اسحقْ.. أَطْلِقْ من أقصى اليمين إلى اليسار، لا تترك أيَّ ثَغْرَة.

بعد قليل انضمَّت إليهم وحدات من الفوج الثاني والأربعين بمدافعهم الرشَّاشة، ليتحوَّل الخندق إلى تنِّين كبير بآلاف الأقدام ينفث النار، فتنصهر الأنفاس في رائحة البارود، من الجهة المقابلة تنهمر القذائف، تقتلع الحشائش المحيطة بالخندق، تثقب أكياس الرَّمْل وتستقرُّ بين حين

وآخر في رأس جندي تعِس، تَنَاقَلَ القادة أن الهجوم يمتدُّ على هيئة قوس من أقصى شرق المدينة إلى غربها، وأن لواء قنَّاصة البارساليري الذي يسيطر على خطِّ واحة المَنْشِيَّة في وَضْع حرج بعد اختراق سريَّته الخامسة إثر هجوم عنيف من المقاتلين العرب والأتراك. جاءت التعليمات إلى الضابط شافيز أن يتقدَّم مع جنوده لنجدة لواء البارساليري في تلِّ الهاني، حيث يتحصَّن العقيد فارا قائد لواء البارساليري هناك.

الوضع حَرِجٌ جدَّاً هناك، إنها حرب شوارع.

قال الضابط شافيز، فَصَعِدُوا إلى الشاحنات المخصَّصة لفِرَق الإسناد. انحشر ساندرو مع دستة من الجنود في المقاعد الخلفية لشاحنة مغطَّاة بقماش مشمَّع، وحاول تهدئة التوسكاني الذي استغرق في حالة هَلَع هستيرية خوفاً على شقيقَيْه في لواء قنَّاصة البرساليري، كان الطقس قد أصبح رمادياً، وتساقطت زخَّات صغيرة من المطر فوق القماش المشمَّع غمرت المكان برائحة التِّبْن المبلول، فجأة وبنظرة ساهمة في اتِّجاه البساتين البعيدة شاهد ساندرو جموع أهالي حَيّ المَنْشِيَّة وشارع الشطّ ينسلُّون من كلِّ مكان من الأرض، كأنهم يخرجون من الأجداث، حُفاة بثياب رَثَّة وقُبَّعات باهتة بلا لون، مُسلَّحين بِجِرَاب وبنادق صيد وأخرى من طراز ألماني حديث، صاح الضابط مُخاطِباً السائق:

- فورسا! (أَسرِعْ)، سيلتهموننا!

- هي السرعة القصوى في الرَّمْل، المقاومة عالية. أجاب السائق.

- يجب أن تفعل شيئاً، سوف نُحاصَر، ثمَّ صاح في الجنود، أَطلِقُوا في الاتِّجاهات جميعها.

جثا الجنود على أرضية الشاحنة، وأَطلَقُوا بعشوائية في اتِّجاه البساتين، لكن الرصاص كان ينهمر عليهم من أماكن لا يمكن التكهُّن بها، وشعر ساندرو أن شيئاً كريهاً سيَحدُث لا قبَل لهم به، ولم يطلِ الوقت بهاجسه، إذ سرعان ما غرقت الشاحنة في الرَّمْل، ومن دون انتظار للتعليمات قفز الجميع متمترسين خلف إطاراتها، وانهمكوا في حَشْو البنادق بالرصاص وإطلاق النار، ثمَّ إعادة حَشْوها والإطلاق ثانية، ومن بين قَعْقَعَة البنادق وأزيز الرصاص والأصوات البدائية التي يُصدِرها الجنود بلا معنى، يصرخ شافيز بنفاد صبر:

- تابعوا الرماية، سوف نُحاصَر.

- الذخيرة على وشك النفاد، صاح أحد الجنود.

- أين بقية الشاحنات؟ صاح آخر.

- يجب أن يرسلوا إلينا الدَّعْم، تابعوا الإطلاق، صاح شافيز.

لم يكن الوقت مناسباً لأيِّ مشاعر، لكن ساندرو شعر بالشفقة على الضابط وهو يمارس دوره بمثالية في الاستنزاف ضالعاً في قيادة جنوده نحو الموت، إذ إن أيَّ أحمق سيقول إنه يتعيَّن عليهم الإبقاء على بعض الذخيرة، فكَّر أن يرتكب خيانة صغيرة للبقاء حَيَّاً، بعد قليل صاح بعضهم مشيراً إلى صُندُوق الرصاص:

- انتهت الذخيرة!

تسمَّر شافيز وابتلع ريقه بصعوبة، مسح حبَّات الرَّمْل الملتصقة بالعَرَق على جبينه، وأمر الجنود بالانتشار، ركضوا في مجموعات صغيرة باتِّجاه الأحراش الشائكة، كانت مجموعة ساندرو تضمُّ الجندي التوسكاني والضابط شافيز وجندياً ضخماً من أوغستا مُدجَّجاً بالوَشْم، تولَّى توفير غطاء من نيران بندقيَّته، لكنه أوَّل مَنْ سقط برصاصة في الرأس، وتدحرج خلفهم على كَثِيْب من الرَّمْل، كانت الصدمة الأولى للقَتْل مريعة، مُخزية ومُقزِّزة، والمبرِّرات كلّها التي تسبق فعل الجريمة بدت لساندرو أكثر تفاهة عند مشاهدة لحظة الاحتضار، ركضوا من دون حزن متوغِّلين بين النباتات الشوكية المتبرعمة في الرمال. بعد قليل شهق الضابط شافيز وهو يتحسَّس كَتِفَهُ المضرَّجة بالدم، لكنه تابع الركض، وبين الطوابي، في جوف سيقان الصَّبَّار الخضراء المفلطحة انحشر ثلاثتهم باستماتة فوق الشوك المدبَّب، ومن بين الفجوات شاهدوا جنود البرساليري وقد أطبق عليهم السكَّان، وذبحوهم بسكاكين البقر، صرخ التوسكاني وعاد إلى حالته الهستيرية مردِّداً اسم شقيقه بهَلَع، ثمَّ نهض من قعدته عازماً على اللحاق به، ارتمى فوقه الضابط شافيز، وأطبق على فمه بيدَيْه:

- هل جُننتَ؟ سنموت جميعاً!

- إلى الجحيم!

- أنتَ تعصي الأوامر!

- دعني أذهب، ذلك أخي.

- تقول القوانين ليس مسموحاً للجندي أن يتَّخذ قرارات خاطئة، كما أنه ليس مسموحاً له بأن يموت.

- ليس مسموحاً للجندي أن يموت، ولكنْ، على معجزة ما أن تَحدُث كي يظلَّ حَيَّاً.

- لن تتمكَّن من إنقاذه، ابقَ هادئاً، هذه أوامر عسكرية.

- اغرُبْ عن وجهي .. لن أتركه.

تمسَّك شافيز بذراع التوسكاني، استجمع قوَّته، وطرحه أرضاً على الشوك، هدَّده بلهجة حاسمة:

- لن تتحرَّك من هنا، إذا اكتشفوا وجودنا، سنموت جميعاً بسببكَ.

لكن التوسكاني لم يأبه للتهديد، استدار وسدَّد لكمة قوية إلى وجه شافيز، فانقلب الآخر عليه بكامل جسده محاوِلاً كَتْم صرخاته، وللمرَّة الثانية يشهد ساندرو خطأ جسيماً لا تغفره القوانين، ليُثبت الجنود أنهم يتحرَّكون وَفْق ما تمليه أهواء العاطفة، لوَهْلَة بدا له وهو ينكمش في جُحره بين السيقان المسنَّنة، أن التوسكاني سيموت خَنْقاً تحت ذراعَي شافيز، لكن التوسكاني سحب سكِّينه بيده الطليقة، وسدَّد طعنة في ظهر شافيز، جعلتْهُ يقفز من هول الصدمة، ثمَّ يرتمي مضرَّجاً بالدم.

- قتلتَني، أيُّها الوغد!

تأوَّه شافيز، وانطلق التوسكاني باتِّجاه خندق البرساليري، وقبل أن يصل، شاهده ساندرو من

بين ثنايا طابية الصَّبَّار الهندي وهو يقع بين يَدَي السكَّان الحُفاة ذوي الثياب الرَّثَّة، يُطبقون عليه الخِنَاق، ويطرحونه أرضاً، ينزعون ثيابه، ويقطعون بسكِّين البقر شيئاً من بين ساقَيْه، ويطوحونه بعيداً، ثمَّ يربطون ساقَيْه بالحبال، ويجرُّونه على الأرض المرصوفة بالحصى، وهناك عند فُوَّهَة البئر يدحرجونه بأقدامهم إلى القاع، ثمَّ يلتقطون جنوداً آخرين، تنتظرهم النهاية المحتومة نفسها.

انتاب ساندرو الهلع، وأيقن أن كلَّ ما حدث قبل هذه الساعة هو حقًّاً نزهة صغيرة له وللحملة الإيطالية على شواطئ ليبيا، وآن الأوان كي تنقلب الموازين إلى أسوأ ما يمكن توقُّعه، لطالما تساءل: لماذا جئنا إلى طَرَابُلُس؟ وبعيداً عن أحلام القوميِّيْن، وبروباقاندا الظهور كدولة عظمى، ونزعة الكنيسة لمَحْق الإسلام، وأطماع الجماهير البرجوازية الصغيرة بامتلاك حدائق الفاكهة، بعيداً عن ذلك كلِّه، جثمت أمامه ذكرى معركة سولفرينو قبل خمسين عاماً، المعركة الأكثر بشاعة ودموية في تاريخ إيطاليا، ضحك بمرارة من فكرة النصر المؤزَّر الذي قاده نابليون الثالث بالتحالف مع الملك عمَّانويل الثاني، ضدَّ قوَّات النمسا، النصر الذي يحتفلون به كلَّ عام، وقد كلَّف ستَّة آلاف قتيل وأربعين ألف جريح في نصف نهار، النصر الذي احتاج إلى أسبوع كامل لإزالة الجثث المتعفِّنة عن الأرض، ولمَّا شاهد جنود البرساليري يتقافزون كالفئران المذعورة، يطاردهم أهالي طَرَابُلُس في شوارع المَنْشِيَّة، ويَخصُونهم بسكاكين البقر، أيقن أن انتصار سولفرينو الأسود

هو مصير محتوم، يطارد تاريخ إيطاليا بظلامية مقيتة، كان الوقت قد تأخَّر ليستوعب ما قاله مؤرِّخ روما العظيم تيودور مومسن، عندما سأل السياسي كوينتينو سيلا، ما الذي تنوون فعله بعد أن تحرَّرت إيطاليا من الاحتلال النمساوي؟ بالنسبة إلى مومسن كان يتصوَّر أهدافاً حضارية سامية، إلَّا أن كوينتينو أجاب: استعادة أمجاد روما. حاول ساندرو أن يخفِّف عن نفسه وطأة الشعور بالوعي، لكنه لا يستطيع أن يَدفِنَ رأسه في صُندُوق الرَّمْل ويتغاضى عن جنون روما الثالثة وريثة روما الإمبراطورية، ثمَّ المسيحية، روما الاستعمَّارية ذات الجرائم المخجلة والطموح المخزي، تمخَّط وبصق شيئاً مُرَّاً على ألواح الصَّبَّار، وتنبَّه إلى شافيز وقد استغرق في نوبة من الأنين بصوت مرتفع، حاول تهدئته، لكنه بدا غير واع بنفسه، زحف نحوه بحَذَر، فكَّ أربطة الحذاء الطويل، نزع جوربه من قدمه وحشره في فمه، لكن ذلك لم يُجدِ نفعاً، إذ أصبح أنينه مثل خُوَار ثور تشتعل من تحته النيران، حينها جاء الوقت لارتكاب خطأ ثالث لا تغفره القوانين، متصالحاً بسلام تامٍّ مع الفكرة التي تقول: «المصلحة السياسية تبرِّر الحرب»، لتصبح وَفْق الحالة الراهنة: «المصلحة الذاتية تبرِّر القتل»، موقناً أن القاطنين في صوامع الفلسفة لا يعرفون على وجه الدقَّة ما يحدث في خطِّ النار، لقد جاءت اللحظة الحاسمة للكفر بالأحلام الوطنية كلِّها، والتبرُّؤ من النزعات الطموحة كلِّها التي ألقت بهم في صُندُوق الرَّمْل الكبير، الصُّندُوق الحارق مثل ثور صِقِلِّيٍّ ينفث الدخان، ما إن دوَّت زوبعة أخرى من رصاص كثيف

متواصل، تراجع إلى أبعد مسافة ممكنة في الجُحر الشوكي، سدَّد الفُوَّهَة وأطلق الرصاصة الوحيدة التي احتفظ بها، كانت إصابة مُوفَّقة، إذ إن جسد شافيز انتثر من مكانه بضعة سنتيمترات عن الأرض، ثمَّ هَمَدَ إلى الأبد.

13

كلُّ ما يعرفه، وما سيقصُّه لاحقاً في مقاهي المحاربين القدامى الذين فقدوا أطرافهم وأسنانهم وأجزاء أخرى مهمَّة لحيواتهم، أنه حدثت معجزة ساهمت في بقائه حَيَّاً يوم واقعة شارع الشطِّ، وباستثناء الخدوش الغائرة التي حفرها الشوك على جسده وتلك القفزات الهَلِعَة التي تنتابه خلال النوم، إضافة إلى سَلَس البول الذي لازمه طَوَالَ الحياة، فإنه لا شيء يوحي بما كان هناك. فعندما جاءت شاحنات الدَّعْم قفز باتِّجاهها بهستيرية مُلوِّحاً بفردة جورب الضابط شافيز، مُلقِياً بالبندقية وراء ظهره، وبأطنان من المقولات عن الشرف العسكري الذي يرقد على قنطرة الزناد.

في المساء أحصى الضبَّاط أعداد القتلى، جمعوا الجنود في باحة المعسكر، ونادوا الأسماء من قوائم مكتوبة، لمَّا سمع اسم ساندرو كومباريتي من ميلانو، غصَّ الصوت في حلقه، تلمَّس أطرافه ليتأكَّد أنه لم يكن هناك في البئر مع التوسكاني التعيس. كرَّر الضابط النداء مُتهيِّئاً لوضع علامة (X) أمام اسمه، أخيراً أجاب بصوت مخنوق:

- حاضر.

رمقه بنظرة تبرُّم، ونادى الاسم الذي يليه: فرانش فيليس من توسكانة، خيَّم الوجوم على الجميع، كرَّر الاسم ثانية، ثمَّ رَسَمَ العلامة المحتومة.

- فَقَدْنا خمسمائة جندي وواحداً وعشرين ضابطاً.

قال الضابط لرئيسه وهو يسلِّمه القائمة، عاد ثانية، ووجَّه حديثه للجنود:

- بإمكانكم كتابة رسائل الليلة إلى ذويكم استباقاً لِمَا يمكن أن تُسبِّبه الأخبار المروِّعة لهم من قلق.

سادت بعض الهَمْهَمَة بين مجموعات الجنود الذين وقفوا في غير انتظام، تخبر سَحَنَاتهم الهشَّة أنهم صِقِلِّيُّون خاملون من المزارعين والحلَّاقين وبائعي المثلَّجات، الذين يحجبون أعينهم عن وهج الشمس، ويبكون عندما تعلق نِعَالهم في الرَّمْل. سارع أحدهم، يحمل غلاف علبة سجائر، وطلب من ساندرو أن يكتب له رسالة عاجلة، قال إنه قد يموت قهراً إذا لم يكتب له رسالته الآن، عاد الضابط وكرَّر على مسامعهم:

- سنجمع الرسائل بعد ساعة من الآن، كي تكون على متن الفِرْقَاطَة التي ستُبحر في الصباح.

أملى الجندي رسالته، قال إنها لوالده: «لا تتعجَّب، لقد خاننا سبعة آلاف عربي بمَنْ فيهم الضبَّاط الأتراك المقنَّعين وضبَّاط الصفِّ، هم كالوحوش يسحبون جنودنا الفقراء، يا لها من لحظة يأس حين فاجأنا فوج سلاح الفرسان التركي ومن خلفهم قوَّات العرب، إننا في حالة مُزرِيَة، شعور كبير بالحزن في وجوه الجميع. لقد أحاطونا، لقد خسرنا»(4).

انخرط الجندي في موجة من البكاء، واضعاً يده على قلبه الذي لم يستطع أن يحتمل الخيانة كما أطلق عليها، كانت كلمة خيانة مناسبة

جدًّاً وفعَّالة جدّاً ووَقْعها أكثر مواساةً لمشاعر الجنود الذين كانوا قد وهبوا بعض الخبز للأطفال الجياع في شوارع المَنْشِيَّة، وصافحوا المتسوِّلين، ومنحوهم أحذية قديمة، وفي مناسبات قادمة وصفوا المَنْشِيَّة كما لو كانت زوجة منفلتة، كان عليها أن ترتدي حزام العِفَّة، وتُلقي بمفتاحه في البحر.

لم تعد الورقة كافية لكتابة المزيد، طواها ساندرو، وسلَّمه إيَّاها فيما كان آخر ينتظر دوره:

«إن السكَّان المحلِّيِّيْن قبيحون للغاية، بل يبدو من المستحيل أن تكون الطبيعة قد خلقت مثل هذه الكائنات الرهيبة، هؤلاء الناس الذين لم يعرفوا الحضارة أبداً يُشبهون الحيوانات البرِّيَّة في الغابة، لا أعرف كيف أخبركَ عن العذاب الذي يلوح عن مَرأى جثث البرساليري التي ذبحوها، لقد عثرنا على جثث الشجعان في كلِّ مكان مذبوحة بأكثر الطُّرُق بربرية ووحشية. إذا كنتُ محظوظاً بما يكفي للعودة سيكون لديَّ الكثير من الأشياء لأُخبركَ بها»(5) .

كان يريد أن يكتب رسالة إلى الآنسة كريستين، ثمَّ تجاهل ذلك، فالتقارير الإخبارية كلُّها التي أرسلها إليها وجدها منشورة، في نُسخ الصحيفة التي تصل مرَّة كلَّ ثلاثة أيَّام، بمعلومات مُحرَّفة ومُكتظَّة بمغالطات انتقائية، وبشيء من الخيبة، تراجع عن التفكير بإرسال رسالة إلى جيا جارسيندا، حيث لم يصله ردٌّ على رسالتَيْه السابقَتَيْن، وهيَ التي كتبت له عنوانها بخطِّ يدها في تلك الليلة السعيدة ودَعَتْهُ إلى مراسلتها قائلة: اكتُب لي

بكلِّ ما في قلبكَ.

في القلبِ لم يكن هنالك شيء سوى الخَوَاء، وشعور بالتفاهة والانحطاط، لطالما كان تقديره لنفسه عالياً، ويعتقد أنه مشروع رجل صالح، يُلبِّي أوامر الواجب بكلِّ إكبار، ويقهر بصبر قدِّيس كلَّ ما في نفسه من نزعات الأنانية، وعندما استدعتْهُ قيادة الجيش للتجنيد الإلزامي والالتحاق بالحملة العسكرية على طَرَابُلُس، تجنَّب مغالطة القوانين أو التشكيك في نقائها، وعدَّ هذا النداء صورة أخرى لمعاني المواطنة، أمَّا اليوم وهو أمام ما يمكن أن يُسمِّيَه صفعة أخلاقية أطاحت بشرف الدولة والجيش والصحافة والبرلمان والحكومة لم يعد راغباً إلَّا في الانزواء بعيداً أو الموت، شريطة ألَّا يُكتَب اسمه على الأنصاب التَّذْكارية للجنود الأغبياء الذين ظنُّوا أنهم ماتوا في سبيل الوطن. لقد بات من الواضح الآن، صبيحة اليوم الثاني لمعركة شارع الشطِّ، أن الموت الذي نجا منه بأعجوبة عند طابية الصَّبَّار الهندي هو أقصى ما يتمنَّاه اليوم، ذلك أن الموت وكما في الأزمنة كلِّها هو السبيل الوحيد لمسح العار. بدا الصباح فاجعاً منذ أوَّل خيوط الفجر، في منتصف الباحة، عند سارية العَلَم الذي كان حتَّى تلك اللحظة مُنكَّساً حِدَاداً على أرواح البرساليري، غنَّى الجنود نشيدهم الصباحي:

أُمَّاه، صلِّي ولا تبكي، بل اضحكي وتأمَّلي

أَلَا تعلمينَ أن إيطاليا تدعوني؟

وأنا ذاهبٌ إلى طَرَابُلُس فرحاً مسروراً

لأبذلَ دمي في سبيلِ سحقِ الأُمَّةِ الملعونةِ

ولأُحاربَ الديانةَ الإسلاميةَ

سأقاتلُ بكلِّ قوَّتي لمَحوِ القرآن

ليس للمجدِ مَنْ لم يمتْ من أجلِ إيطاليا

تحمَّسي أيَّتها الوالدة

وإن سألكِ أحدٌ عن عدمِ حِدَادكِ عليَّ

فَأَجِيْبِيْهِ ماتَ في محاربةِ الإسلامِ(6)

في تلك الأثناء ظهر الجنرال كانيفا محاطاً بضبَّاط آخرين قَضَوا الليل وهم يُعلِّقون الدبابيس والنجمات وشارات النصر على كلِّ مكان من قُبَّعاتهم وملابسهم العسكرية، لقد بدوا أكثر وجاهةً ومنعةً من أن تتبادر إلى الأذهان فكرة الإحباط أو الهزيمة، وأمام بريق الكتفيَّتَيْن الضخمَتَيْن المقصَّبَتَيْن بخيوط الذهب اللتَيْن ارتداهما كانيفا، أصبح بالإمكان التغاضي عن كلِّ ما حدث في الأمس المشؤوم، كانت المرَّة الأولى التي يوجِّه فيها حديثاً مباشراً إلى الجنود، والمرَّة الأولى التي يعطي فيها مبرِّراً لقرار عسكري اتَّخذه دون العودة إلى الحكومة، مع الوقت وبعد أن عاين الطليان قسوة الطبيعة الرملية في موقع القتال، سلَّموا أن كانيفا، وخلافاً لاتِّهامات جولييتي له بالتخاذل، كان مُحقَّاً لأنه لم يسمح بنَحْر سرية سلاح الفرسان في صُندُوق الرَّمْل الحارق، لقد سمح فقط بنَحْر الطَّرَابُلُسِيِّيْن. وعندما طلعت الشمس كان الجنود يركضون كالجاموس الهائج باتِّجاه واحة المَنْشِيَّة، يُطلقون النار على كلِّ مَنْ يصادفهم، ويتفوَّهون بتلك النداءات

المهولة «مَنْ لم يُسلِّم سلاحه سوف يُقتَل رمياً بالرصاص»، وكان الضابط ذو العُنق الأحمر الذي تولّى قيادة سريَّة ساندرو بديلاً عن شافيز: يصرخ بعروق نافرة دفعت المزيد من الدماء إلى عُنقه: اقتلُوا الخَوَنَة الملاعين، ومن بعيد تأتي أصوات الهَلَع والضجيج والرصاص وطَقْطَقَة النيران في البيوت المحترقة، وصراخ النساء والأطفال، والشهقات المروِّعة للقتلى الذين ذبحوهم بين أهاليهم، ركض ساندرو متعجِّباً من صلابته في مقاومة الرَّمْل مُلامِساً حقيقة اندماجه الجديد، أطلق النار كما ينبغي، سمع حشرجة قَتْلاه في لحظات احتضارهم، ألقى الأغلال في معاصم المشتبه بهم لاقتيادهم لساحة الإعدام، وللمرَّة الأولى يستذكر بدقَّة قواعد دريل دون أن يكفر بشيء منها: لكي تكون جندياً لا بدَّ أن تنصهر مع الآخرين فيما يؤدُّون من مهامّ، لا بدَّ أن تخضع للدوران الجماعي، كي لا تنسحق أمام الركض المعاكس، مضيفاً قاعدته الخاصَّة: لكي تكون جندياً، لا بدَّ أن تتحرَّر من غائلة الوعي.

كانت الجثث مُكوَّمة أمامه على امتداد البصر، ورائحة الدم الساخن تتغلَّل في حلقه، يملؤه صراخ الفتيات اللاتي اقتادوهنَّ من بيوتهنَّ إلى وجهة غير معلومة، وأمام البيت الحجري المسامت لمزرعة شبه جرداء وقف الضابط ذو العُنق الأحمر بعيداً، وأمر الجنود بالاقتحام، رَكَلَ ساندرو الباب بقَدَمه، وقبل أن يخطوَ إلى الداخل سحبت امرأة عجفاء تلتحف رداءً أسود عمودَ المنساج من نُولها، وهوت عليه بضربة غير موفَّقة، ذلك لأنه سبقها

فأطلق النار. شاهد الدم يتدفَّق من حزامها، في اللحظة ذاتها وَثَبَت الفتاة بائعة الحليب وشقيقها الصغير من مخبئهما يصرخان ويُمرِّغان وجهَيْهما على جسد الأُمِّ المُسجَّى على الحصى، وقف مشدوهاً بلا حَرَاك، متحطِّماً كتمثال من الرَّمْل، مصروعاً بنظرتها الغامضة وبوعي انكساره الأبدي، أدرك في اللحظة التالية أنه كائن بائس، محكوم بقَدَرِيَّة العار، كان دائماً يخاف من أهوال المعركة، من الرصاص والنار والخنادق والدم، ومن السقوط جريحاً، ويتخلَّى عنه الرفاق، إنه بمعنى آخر يخاف من الخِذلان، نعم الخِذلان، وَخَزَتِ الفكرةُ رأسَهُ مثل إبرة مسمومة، مثل طعنة، أو بالأحرى، مثل نظرة الفتاة الآن، داهمَهُ إحساس أن نظرتها تُدحرجه إلى قاع البئر، حيث ذهب التوسكاني من دون رجولته، وتمنَّى أن يتحطَّم سريعاً في القاع كنهاية رحيمة لسقوطه المريع، كانت الفتاة ما زالت تصرخ وتتلمَّس حزام أُمِّها النازف وتلطم وجهها بالدم، حين دخل الضابط وصاح مشيراً إلى الفتاة بالعنف ذاته الذي يتدفَّق من عروقه النافرة:

خُذْها إلى الشاحنة.

ذُهِل وهو واقفٌ قُبالَتَها، تجمَّد للحظات في محاولة الاستيعاب واستقبال فكرة مشوَّشة حول كيفية أَخْذ فتاة إلى مكان ما بطريقة صحيحة غير حملها مستلقية على الذراعَيْن، شعر بالدم يهرب من رأسه ومن عروقه ومن فراغات عينَيْه، ونظر كما تنظر فزَّاعة من القشِّ، فاجأتْها صاعقة، صاح الضابط ثانية بزمجرة مُدوِّية: الفتاة، خُذْها حالاً،

ماذا تنتظر، أيُّها الوغد؟

انحنى عليها من الخلف، مُطوِّقاً خصرها بقبضَتَيْن من الفولاذ، وسمع في اللحظة ذاتها شهقة نزَّت عنها بمزيج من التقزُّز والوجع والصدمة والاحتقار، ونشبت أظافرها تمزِّق ظاهر كفَّيْه وهي تصرخ محاوِلة الافتكاك، ومع ذلك تابع مهمَّته بسرعة قصوى مختصراً قَدْر الإمكان اللحظات السمجة لاحتكاك رأسها على صدره وهو يُجرجرها على الرَّمْل، راسمة بقدَمَيْها الحافيَتَيْن أخاديد كبرى على خريطة وعيه الحضاري، في اللحظة ذاتها سمع آخر نداءات الأُمِّ من بين حشرجاتها، كانت تهتف باسمها: حليمة، حليمة، هكذا سمعها تنادي اسم الفتاة وتقول شيئاً يبدو مهمّاً جدّاً بالنسبة إلى أُمٍّ في آخر لحظاتها، ولفتاة تُساق إلى مصيرها المجهول.

عندما استيقظ من نومه وجد نفسه غارقاً في بحيرة من البول، شعر بالخزي ونظر باتِّجاه الجنود الآخرين الذين كانوا نائمين في أوضاع مختلفة، يعلو وجوههم الشحوب والإرهاق كأنهم لم يناموا منذ ألف سنة، تأمَّل جلودهم المتغضِّنة وأياديهم الملقاة بعيداً عنهم، كأنها تتبرَّأ من هول ما اقترفوه، بحث في كفَّيْه عن أثر الفتاة، عن حرارة أنفاسها ورائحة الصابون العشبي المنبعث من ضفائرها، داهمتْهُ اللحظة المذهلة المريعة حين دفعها إلى صدره، وطوَّقها بذراعَيْه، تذكَّر كيف كانت تخمش صدره بأظافرها وهو يسحقها مثل جنزير، كيف نازعتْهُ لذَّة العناق وبشاعة الرذيلة، كيف خاتله شعور النشوة

والوَهْم حين كان يُجرجرها على الرَّمْل باتِّجاه منفاها الأخير. هزَّ رأسه بعنف مُحاوِلاً تجاوز التفكير في ثِقَل المرارة الذي عليه أن يتحمَّله سنيناً أخرى طويلة. هكذا جاء الصباح الأوَّل بعد المذبحة خليطاً من السخط والرغبة في تمزيق ثيابه أو إغراق نفسه في البحر، وتلقِّي صفعة من موجة ضخمة عنيفة قادرة على تحطيمه وتفتيته إلى ذرَّات، تمنَّى لو كان شجاعاً مثل فرانسيس ماكولا المراسل الإيرلندي الذي بصق البارحة في وجه القادة، وألقى في وجوههم بكارت تعريفه كصحفي متبرِّئاً من الوحشية التي سحقوا بها سكَّان واحة المَنْشِيَّة التعساء، وللمرَّة الأولى يشعر بالتقدير للكولونيل بيترو فيري الجاسوس المغامر الذي وجد في نفسه الشجاعة الكافية لينتحر ويضع حَدَّاً لخوفه وخيبته وحَنَقه وامتعاضه، شاهده ظهيرة الثالث والعشرين، يقود باندفاع أهوج سريَّة من بحَّارة السفينة سيشيليا كانت ضمن قوَّات الاحتياط التي حاولت إنقاذ لواء البارساليري الممزَّق، كانت المصادفة وحدها التي جاءت به في ذلك الصباح لاحتساء قهوته مع قائد لواء البارساليري، العقيد فارا، في مكتبه بقلعة القائمقام فوق تلِّ الهاني. دعاه ليشهد صباحاً بانوراميَّاً بديعاً ينبسط من شرفة القلعة، حيث بإمكانه أن يتأمَّل الفتيات خلف حميرهنَّ يتراشقنَ بالمياه، والأطفال العراة يركضون في قُطعان سعيدة، والكهول الذين يجلسون في سكينة، ولا يُولُون انتباهاً لطائرة حربية يرونها للمرَّة الأولى تُحلِّق في السماء. كان بُخار قهوته يتكاثف في الفضاء مع دُخان سيجارته حين دوَّى

أزيز الرصاص على طول خطِّ المَنْشِيَّة، وتدفَّقت الرسائل عبر أجهزة اللاسلكي تُنذر أن دفاعات البارساليري في وضع حَرِج، وشاهد عبر منظار الميدان فصيلاً من الخيَّالة العرب يحاول الالتفاف حول السريَّة الخامسة، ولمَّا كان صديقه فارا قد أصبح محاصَراً ومعزولاً وعاجزاً عن التواصل مع باقي القوَّات، فقد سمح له بقيادة سريَّة من البحَّارة الاحتياط والتغلغل باتِّجاه خطِّ الدفاع المثقوب.

أخيراً واتتْهُ الفرصة ليكتبَ صفحة مُهمَّة من مذكِّراته كقائد ميداني، يُنقِذ اللواء المهدَّد، هكذا أراد أن يختبر بطولاته المكبوحة، أن يلامس العَظَمَة التي تصنعها انتصارات قادة الجيش، في البداية كان الأمر مثيراً ومُحيلاً إلى متعة هائلة، تجعل من غير الملائم أن يخيِّب أمل جنوده في النصر، لكن أقلَّ الجنود كفاءة كان سيشعر بأنه ارتكب حماقة كبيرة حين تغلغل في أرض، تحيط بها غابة من النخيل حيثما هزَّتْها الريح ينهمر الرصاص، وشاهد جنوده يتساقطون كقِطَع الدومينو حتَّى لم يعد هنالك غيره واقفاً في مساحة العشب، فجأة توقَّفت الرماية من حوله، وشعر بعيون تنظر إليه من مكان ما من خلف الأشجار، فكَّر في الهرب، لكنَّ قدمَيْه كانتا ثقيلَتَيْن على نحو فظيع، وسمع خَشْخَشَة خطوات على القشِّ تقترب نحوه، وأدرك أن عليه القيام بشيء مهمٍّ في هذا الوقت، وقد قام به على نحو ممتاز، هكذا أخرج المسدَّس من حزامه، أطلق رصاصة في فمه، واستراح إلى الأبد.

لم يتصوَّر ساندرو أن هنالك صباحاً جنائزياً أكثر بؤساً وكآبة من هذا الصباح، الشمس نفسها بدت من نافذة عنبر النوم كئيبة ومهزومة وغير قادرة على مَحوِ ما حدث وبثّ يوم جديد، بحُرْقَة يائسة، قرَّر أن يكتب رسالة إلى كريستين، فلتنشر ما سيقوله أو فلتذهب إلى الجحيم، قال وهو يخطُّ رسالته، لكنْ، يقيناً ما ألمحَ إليه أنها ستنشر فحواها في صحف أخرى غير كوربيري، إذ إن فتاة انتهازية مثلها لن تُفوِّت فرصة نشر أخبار حصرية في صحف معادية ما دامت كانت تدفع لها مقابلاً يغطِّي نفقات دراستها، كتب:

«آنسة كريستين:

لا أعرف كيف أنقل لكِ صورة ما حدث، إنني جدّاً مُشتَّت الآن، وربَّما لم تكن مقالتي مصاغة كما ينبغي، لكنني أُضمِّنها بالحقائق التي شهدتُها ولامستُها أو كنتُ طرفاً فيها، لتكوني على يقين بأنها الحقيقة، أعلم أنه من الصعب أن يُصدِّق الإيطاليون أن أبناءهم من أفراد الجيش الذين يرتدون بِزَّات الشرف العسكرية قد تحوَّلوا إلى ضِبَاع، كان يوماً لا يُصدِّقه العقل، ما إن أطلق كانيفا الإشارة في ساعة الصباح حتَّى انطلق مِهْرَجَان الدم، داهمنا البيوت, وأخرجنا السكَّان من غرف نومهم، وسقناهم إلى المشانق، كنتُ مع خمسين جندياً يقودنا غراند، نَركُل الأبواب بأقدامنا، ونطلق النار، بالنسبة إلى غراند، المحظوظون فقط مَنْ أرسلهم إلى المنفى في جزيرة أوستيكا، أمَّا البقية، فإلى المَقْبَرَة، لستُ أدري إذا كانت مقابر المَنْشِيَّة ستسع ما يزيد على أربعة

آلاف جُثَّة.

هكذا كنتُ مع فرقتي نقتحم البيوت وأكواخ الصفيح الفقيرة، نُصادِر أسلحة الصيد والمناجل وسكاكين المطبخ وشفرات الحلاقة، وننفِّذ الإعدام في العرب الذكور فوق سنِّ الثالثة عشرة، لأنه هناك شكٌّ في أنهم أطلقوا النار على المؤخِّرة الإيطالية أو يستطيعون أن يفعلوا ذلك في المستقبل. في البداية اعتقلنا عشرين أسيراً، دفعناهم للسَّيْر حتَّى وصلنا إلى ساحة الإعدام في سوق الحطب، أطلقنا عليهم الرصاص بمعدَّل اثنَيْن في كلِّ مرَّة، كنتُ أتأمَّل الفزع في عيون الاثنَيْن اللذَيْن سيحين دورهما في وقت كان الآخران وشيكَي السقوط، إنني لا أستطيع التفكير بهم دون التفكير بشهداء بلفيوري، الجريمة ذاتها التي تعرَّض لها المناضلون الإيطاليون الأحرار الذين أعدمتْهم السلطات النمساوية بوادي بلفيوري في حرب التحرير، بل تجاوزنا النمساويِّيْن وحشية، إذ إننا بعد تنفيذ الإعدام، أجبرنا النساء على السَّيْر فوق جثث أزواجهنَّ وآبائهنَّ، كنَّا ندفعهنَّ بأعقاب البنادق وهنَّ يتمرَّغنَ على الأرض يرفضنَ وطء الجثث بأقدامهنَّ، ثمَّ أخيراً أطلقنا عليهنَّ النار جميعاً.

حقّاً لقد كان مِهْرَجَان إعدام، حيث بإمكانكِ أن تشاهدي طفلاً بفروة رأس مسلوخة وكتلة دماغه متناثرة على الأرض، بإمكانكِ أن تشاهدي صبايا مشوَّهات ومقطوعات الأثداء والأطراف، كان هنالك طفل يافع تشتعل نظرة احتقار في عينَيْه كفيلة بتأجيج غضب ثمانية جنود، أطلقوا عليه النار

في مرَّة واحدة.

في المساء كان علينا أن ننتهيَ من أمر فوج جديد من نساء حبيسات في مسجد قال القادة إنه لم يعد هنالك مكان شاغر لهنَّ في المعتقل، شاهدتُهم وهم يتناوبون على قراءة البرقية التي وصلت من روما تقول إن سجن أوستيكا لا يسع أكثر من ستُّمائة سجين، قالوا أيضاً إن سان جورج الراسية في الميناء ستغرق إذا زادت حملاً إضافياً من الأسرى، ولم أكن أتصوَّر أن التداول في أمر إعدامهنَّ لن يتجاوز بضع دقائق، هكذا جاء القرار بالتخلُّص منهنَّ سريعاً، كما لو كنَّ وباء، كانت المرَّة الأولى التي أدخل فيها مسجداً، انتابتْني قُشَعْرِيْرَة وأنا أجتاز بابه الأخضر المقوَّس، وأصطدم بصدى الصراخ العالي، تُردِّده الجدران البيضاء الناصعة، إلى أيِّ مدى كان الصراخ مرعباً وكريهاً ورائحة الأنفاس والعَرَق خانقة، كان جنود فرقة الإعدام يشعرون بالسأم ومُرهقين ومُبلَّلين بالدم والسوائل الكريهة التي انبثقت من الأجساد، وضجرين من مهمَّتهم المُرهِقة. قال غراند إنه لا ينبغي أن يسمع المراسلون الأجانب صوت رصاص الإعدام في المسجد، لتأتي التعليمات بطعنهنَّ بالحراب، انحنيتُ على كواحلهنَّ الحافية المتشقِّقة، فأوثقتُها بالحبال، ثمَّ سرعان ما هوت على أجسادهنَّ الحِرَاب، وارتفعت شهقاتهنَّ وطَقْطَقَة عظام أطفالهنَّ تحت أحذية الجنود.

ربَّما تتصوَّرين أن ذلك من وحي الخيال، لكنها الحقيقة بأقصى اختصار ممكن، بإمكانكِ متابعة صحف ديلي تلغراف والتايمز وديلي ميرور،

شاهدتُ هنا مراسليها يلتقطون صوراً لكلِّ ما حدث».

لم يكن متأكِّداً ممَّا إذا كانت كريستين كانت وراء نشر تقريره، أو أن مراسلاً آخر قد فعل الشيء ذاته، لكنه، في وقت لاحق، وجد الأخبار نفسها منشورة في صحف أفانتي وديلي ميرور ومورنييغ بوست، طَوَى رسالته، وسار باتِّجاه خزَّان الماء المنصوب على قطعتَيْن من الحَجَر، غسل سرواله، ونشره على السياج الحَجَري، متجاهِلاً تعليق جندي وقح، استيقظ للتوِّ، وغمز إلى أسباب أخرى ذات أهمِّيَّة تُسبِّب البَلَل في سراويل الذكور، تجاهل تعليقه بنفاد صبر، وسأله أن يمنحه سيجارة، كان الجندي الذي بدا في الثلاثين من عُمُره مع صلعة واسعة في مقدِّمة رأسه يقضم ساقاً من الجريسيني، ويتجرَّع خلفها رشفة من الشاي، ثمَّ يسحب مجَّة من السيجارة على التناوب، ويلعن الضبَّاط، لأنهم لم يسمحوا بتقديم الكحول بمناسبة النصر، وكان وهو يتحدَّث ينظر بقلق إلى الأحراش المكتظَّة بالشجيرات وذؤابات النخل المطلَّة من خارج سياج المعسكر، مُنصِتاً باهتمام بالغ إلى إطلاق بعيد بين الفينة والفينة، ورَغْم تأكيده أن الأمر لن ينتهي على هذا النحو، وسوف تكون هنالك انتفاضة أخرى وشيكة ظلَّ يتحدَّث عمَّا حدث في حَيِّ المَنْشِيَّة وشارع الشطِّ بكثير من الزَّهْو.

- الصباح، وأنتَ منتصر، له طَعْم مختلف.

- تقصد له طَعْم الجريسيني؟ أجابه ساندرو بمَلَل، فقهقه متمسِّكاً بحالته شبه الرائعة، وقال:

- الأوغاد، كان عليهم أن يقدِّموا إلينا الشراب اليوم احتفالاً بالنصر، علينا أن نطالب بذلك. نفث سحابة دخان من زاوية فمه، وتابع: لم يكن الأمر سهلاً، فرقتنا دخلت حِصن الهاني، وجدنا آلاف الوجوه القبيحة مبعثرة هنا وهناك ممزَّقة بمدفعيَّتنا القوية، قتلناهم جميعاً، سيحتاجون إلى أسابيع لإزالة الجثث العَفِنَة من الشوارع.

لم يعلِّق ساندرو بدا له كأن الصوت يأتيه من العالم الآخر، سأله الجندي:

- ما بكَ؟ ألَا تسمعني؟

فرك يدَيْه ببعضهما، ونفخ فيهما زفيراً حارَّاً ونَتِنَاً، انتابتْهُ قُشَعْرِيْرَة لم يكن متأكِّداً إن كانت من البرد أو كان مريضاً دون أن يدري:

- أنا متعبٌ جدَّاً.

كان الطقس بارداً ويُنبِئ عن مطر وشيك، وشيئاً فشيئاً شاهد الجنود يخرجون من المَنامَات، ويسيرون باتِّجاه الأحراش النباتية قريباً من السياج لقضاء حاجاتهم، ثمَّ يعرجون على خزَّان الماء للاغتسال، وأخيراً عنبر الطعام، حيث الأكوام من أصابع الجريسيني، تابع الجندي حديثه بحماسة:

- هل سمعتُم صرخاتهم الهائلة؟ عندما قتلناهم كان يصرخون باسم إلاههم على الشفاه، الله الله، كانوا يهتفون مثل المجانين.

- لديهم اعتقاد بأن مَنْ يموت يذهب إلى الجنَّة يعيش وهو ميت دون أن ينفصل عن حياته. قال آخر.

(4)) باتشيو باتشي - رسائل الجنود الإيطاليّيْن - ص 34.

(5)) باتشيو باتشي - رسائل الجنود الإيطاليّيْن - ص 42.

(6)) أنشودة يغنِّيها الجنود الطليان في الحرب على ليبيا اشتهرت بعنوان (وداع جندي إيطالي لأُمِّه).

14

السفينة سان جورج - الطريق إلى أوستيكا

عندما استفاقت حليمة، لم تستطع أن ترى شيئاً، أو تتذكَّر شيئاً، أو تعرف في أيِّ مكان هي، كان الظلام دامساً والمكان خانقاً ونَتِناً ومغموراً بضجيج غير مفهوم، حاولتْ أن تفتح عينَيْها، اكتشفتْ أنهما مفتوحتان على اتِّساعهما، لكنهما غارقتان في الظلمة، أو في برزخ سفلي، بكت قبل أن تتحرَّك من مكانها، بكت بحُرْقَة، لأنها ماتت قبل أن تعرف ما حلَّ بها، ما أقسى أن يموت الإنسان دون أن يعرف السبب، هجست بمرارة، وحاولت وهي ملقاة على ظهرها أن تُحرِّك ذراعَيْها، فطقطقت عظامها كحزمة أغصان يابسة، نزَّت عنها آهة متبوعة بفرح مُبْتَسَر حين اكتشفتْ أنها لا تزال على قيد الحياة، وفي اللحظة ذاتها أيقنت أن الضجيج الذي يحيط بها هو أنين أشخاص آخرين، مثلها، تائهين ومحطَّمي العظام يواجهون قيامتهم المظلمة دون معرفة الأسباب.

- ماء، أريد ماء.

كان صوت رجل ملاصق لها، لا تدري مَنْ هو ولماذا هي معه في هذا المكان، وكيف يتوسَّد بثِقَل رأسه على ساقها اليمنى. فكَّرت أن تفعل شيئاً، أن تصرخ، أن تستنجد بأحدهم، دفعت رأسه محاوِلة الجلوس، صرخت متوجِّعة وهي تتلمَّس عَجِيْزَتَهَا، حيث رَكَلَهَا أحدهم، لقد تذكَّرت الآن، لقد دفعها جندي بضربة من قَدَم حذائه العسكري، وتذكَّرت أنها تأوَّهت بشدَّة، ثمَّ سقطت في القاع.

استطاعت الجلوس أخيراً، مستندة على شيء خلفها، ربَّما كان جداراً، لكنه بارد جدَّاً، والأرضية زَلِقَة برائحة الخِرَاء، وعندما مدَّت ذراعَيْها كانت الأجساد تحيط بها من كلِّ جانب. أجساد عَطِنَة متأوِّهة أو ملقاة بلا حَرَاك. سمعتْ مزيداً من الأصوات تستجدي الماء، وبكاء أطفال ينادون أُمَّهاتهم، فجأة صرخت:

- حمد، حمد، أين أنتَ، يا حمد؟

زحفت على ركبَتَيْها متلمِّسة طريقها في الاتِّجاه الذي يأتي منه بكاء الأطفال، لا بدَّ أن يكون حمد هناك، أكَّدت جازمة، فقد كان خلفها مباشرة في تلك الليلة التعيسة، عندما أخرجوهم من المعتقل في جنح الظلام، عندما اقتادوهم باتِّجاه البحر، حيث تنتظرهم مراكب الرحيل، سارت مطأطئة مع الجموع الحزينة، نساء ورجال وأطفال وشيوخ، دوَّن الضابط اسمها وهي تعبُر باب المعتقل، «مستورة فرج»، قالت بعد أن همست لها المرأة التي تحاذيها: «ليسترنا الله، لا نعلم ما سيفعلونه بنا». أخفت جديلَتَيْها أيضاً في رُدْن الرداء الواسع، وضمَّت ذراعَيْها على نهدَيْها بقلق، وكان الطابور يتحرَّك أمامها طويلاً وواجماً وغارقاً في الحِدَاد، تتمايل الأجساد في صمت مثل ظلال بلا روح، ولا شيء يمكن سماعه سوى حَسِيْس الأقدام العارية على الرَّمْل قبل أن يبتلعَها البحر. راقبتْ بهَلَع مصير الذين ساروا أمامها في الطابور، كيف دفعوهم إلى سطح السفينة الجاثمة في المرفأ، ثمَّ اقتادوهم نحو دَرَج يهبط إلى الأسفل، إلى مكان أكثر ظلمة، عبر باب صَدِئٍ، يفضي إلى قاع

مجهول، لقد حان دورها في العبور، أشار لها جندي أن تتقدَّم، أشفقت على حمد الذي كان خلفها مباشرة وينتظره المصير المحتوم نفسه، التفتت .. جذبتْهُ إلى صدرها، واحتضنتْهُ بيأس .. هوى السَّوْط بجِلْدة حادَّة على ظهرها، أفلتت الصغير، وشعرت بقَدَم كبيرة، تَركُلها بقوَّة من الخلف، لتهويَ في الفراغ المظلم.

- أين أنتَ، يا حمد؟

بعد وقت طويل، فُتح باب المغارة، وتسلَّل ضوء شحيح من شمس باهتة، بدَّدت بعض العَتَمَة، وأصبح بالإمكان رؤية لطخات البراز والقَيء والقَيْح المتقصِّد من الجروح النتنة والجثث المتفسِّخة على الأرضية، حملق الجميع في بعضهم البعض، هلعين ومذهولين بما كانوا عليه من البؤس، كأنهم لبثوا في إسطبل السفينة مئة عام. في تلك السانحة الصغيرة من الضوء كَرَعَ الرجل العطشان في حوض ماء مغطًّى بقشرة رخوية، وهرعت الأُمَّهات للبحث عن أطفالهنَّ، وتحامل المرضى على غَشَيَاتهم، وانتصبوا واقفين اتِّقاءً لمصير مجهول، وكان حمد منكمشاً عند كومة تبن في أبعد زاوية من السرداب، وما إن رأى حليمة حتَّى دبَّ نحوها على أربع مُغَمْغِمَاً كجرو، احتضنتْهُ وغمرت وجهه في صدرها، ثمَّ وبغريزة غامضة دفعتْهُ إلى حزامها، وتمنَّت لو تعيده جنيناً، ثمَّ تُخبِّئه في رَحِمها، ولا يخرج أبداً إلى هذه الحياة الظالمة. خلال اللحظات الموالية قفز جنود الكارابينيري من انفراجة الباب، والتقطوا جثث الموتى لإلقائها في البحر، صرخت امرأة تحاول

افتكاك أبيها المريض:

- حرام عليكم، هو لم يمتْ بعد.

لم تعد تدري كم لبثت في قاع السفينة، لكنها تذكر أنها شاهدت الشمس ثلاث مرَّات. هي الصباحات التي يأتي فيها الجنود لإخراج الجثث وإلقائها في البحر، في اليوم الثالث كان عدد الجثث مهولاً، تفشَّى الإسهال، ولم تعد تسمع في الجوار إلَّا أصوات الطَّشَاش وهو يتدفَّق من الأمعاء مع تأوُّهات مريرة، وتحوَّل قاع السفينة إلى حفرة خَلَاء كبيرة بنتانة لا تُطاق. قالت بعض الأصوات في الظلام إن العدوى تنتقل من حوض الماء، قام أحدهم ورَكَلَ الحوض بقَدَمه وقال:

- أن نموت من العطش أشرف لنا أن نموت بالخراء.

أطبقت الأفواه على عطشها، ولم يعد للأطفال طاقة على الصراخ، سمعت امرأة تُكلِّمها:

- ابنكِ صغير، هل قتلوا أباه؟

- هو أخي، لقد قتلوا أُمِّي.

- يا طفلتي المسكينة.

سكتت قليلاً حتَّى ظنَّت أنها ابتعدت، ثمَّ عادت وهمزت كَتِفَهَا بشيء ما في الظلام:

- هاك خبزة، أطعميه.

- إنه عطشان.

- الصبر، ليسترنا الله.

خيَّم الصمت على الشفاه التي أضناها العطش،

وتناثرت في الظلام تأوُّهات مبحوحة لحناجر أنهكها السُّعال، وكانت حليمة وهي مستلقية على كومة التبن تلاحق خيط ذكرياتها في أزقَّة المَنْشِيَّة، تهاجمها صورة أوَّل يوم نزلت فيه البواخر الإيطالية على شاطئ طَرَابُلُس، كان المشهد غريباً، عدد ضخم من السفن الحربية وزوارق المدفعية، وسفن محمَّلة بالصناديق، ووسط هذه القوَّات كلِّها تنساب القوارب الشراعية، وقوارب بمجاديف، وزوارق لها أنف مُدبَّب، وأخرى طويلة مثل الأفاعي تمخر البحر من كلِّ اتِّجاه، وعلى طول الشارع الرئيس الموازي للبحر يسير جنود متشابهو الوجوه والثياب، يرقص ريش خوذاتهم مُداعِباً الريح، يُغنُّون نشيدهم، ويلتهمون البِطِّيخ الناضج الذي تركه التجَّار أمام دكاكينهم الصغيرة، فيما الأطفال يركضون خلف الجنود حفاة ومتَّسخي الثياب، يمدُّون أيديهم طلباً للخبز، ويتعلَّقون بمؤخِّرات العربات كالقِرَدَة، حاصرتْها صورة الجندي الذي رَكَلَ باب البيت بحذائه الثقيل، وأطلق الرصاص، أحاطت بها قتامة نظراته، رائحته الدَّبِقَة، لُزوجة كفَّيْه والعَرَق المتناثر من وجهه، ذراعاه الملفوفتان حول خصرها كالخُطَّاف، لماذا كان ودوداً في اليوم السابق حين حَرَنَ الحمار فوق جسر الخندق؟ لماذا كان يبتسم وهو يعلم أنه سيرتكب جريمته البشعة في لحظة ما؟ باغتَها السؤال مثل صفعة ضخمة، بإمكانها أن تسحق فكرة الحياة، وتُهشِّم منعطفات الأمل جميعها.

عاد جنود الكاربينيري، وفتحوا كُوَّة السقف

ثانية، هذه المرَّة يحملون مصابيح غازية، قرَّبوها من الوجوه باحثين عن مرضى أو موتى آخرين، حرَّكت حليمة ساقَيْها، وهزَّت حمد من كَتِفِهِ ليصحوَ، وللمرَّة الأولى تنتبه إلى هدير الموج وهو يزحف نحو السفينة بلُهاث حيوان ضخم، يتطاير الزَّبَد من فمه، ويكشِّر عن أنيابه منتظِراً جُثَّة عطشى، حاولت أن تدفعه عنها، فاستحال إلى جندي غامض النظرات يطاردها ببندقيَّته عند حافَّة الخندق الطويل قبل أن يقتحم البيت، ويُفرِغ رصاصه في جوف أُمِّها، هجم المشهد منتفضاً بحرارة الدم والفَقْد ومرارة العطش وهي تصعد إلى الحَلْق الجافِّ، بحثتْ عن بشير، مدَّت يدها في الفراغ، بكت كطفلة تائهة، ونادت اسمه في الظلام، وكم كانت دهشتها وهو يغادر مبتسماً ومديراً لها ظهره. في اللحظة ذاتها ومن قاع الظلمة تسلَّلت تضرُّعات هادئة، يلهج بها أحدهم في الجوار، صوت رخيم تفيض نغماته كَسَلْسَالِ ماء عذب، يقطر من سقيفة كهف، أو كتسابيح تنبعث من غرفة سرِّيَّة، غفت قليلاً، وغمرتها رائحة زكية تنفذ إلى أعمَّاق مسامِّها، تسمع دندنات أُمِّها وهي تَحلِب البقرة فوق بساط العشب، يتفصَّد لسانها بطَعْم الحليب الطازج، لا، إنه طَعْم اللبن الرائب، صحَّحت لنفسها، وشهقت أنفاساً مُشتهاة، بل طَعم الحليب مُضافاً إليه السُّكَّر والقرفة، لعقت شفتَيْها بلذَّة قُصوى: بل طَعْم الحليب باللوز وماء الورد. وكلَّما بكى حمد من شدَّة العطش تُمدِّه على ساقَيْها، تُهَدْهِدُهُ بتلك التضرُّعات، فيتفصَّد ريقُها زُلالاً في فمها، يسيل شيء منه على ثَغْرها، تنحني على فمه، تُطبِق

شفتَيْها على شفتَيْه، تدفع لسانها داخل فمه، يسترخي الصغير، ثمَّ ينام.

أطلَّ الصباح الآخر بلا شمس، وبصقيع يقشر الجِلْد من تحت الثياب. وعندما أخرجوهم إلى ظهر السفينة لم يكن هنالك سوى الريح وأرض سوداء غامضة تبدو من بعيد كجزيرة أشباح، أوستيكا، أوستيكا، هلَّل الجنود. ورست السفينة عند أرخبيل صخري حين لم يعد باستطاعتها التقدُّم في المياه الضحلة، فسارعت نحوها قوارب صغيرة كجِرَاء ضبعة، أحضرت لها أُمُّها فريسة. تمسَّكت حليمة بذراع حمد، ووقفا في الجزء الأخير من الطابور عند حافَّة الجرف الناتئ، وكان ضابط الكارابينيري يحمل القائمة، وينادي الأسماء شاطباً الموتى، سمعتْ اسماً بدا لها مألوفاً: «مستورة فرج»، بعد هُنَيْهَة استفاقت: نعم نعم. ردَّدت المرأة خلفها: ليسترنا الله.

كان يوماً بائساً وثقيلاً، وفي كلِّ مرَّة يُخفق التُّرْجُمَان اليهودي، الذي يردِّد الكلمات بحروف خائيَّة، في شرح التعليمات للسجناء، وقفوا ببلاهة لا يعرفون ما الذي ينبغي عليهم فعله حينما يصرخ في وجوههم الضابط المرقَّط بالنَّمَش مشيراً إلى اتِّجاه البحر.

- لعلَّهم يريدون منَّا العودة إلى البابور.

هذا ما خَمَّنَتْهُ المرأة التي أصبحت لصيقة بحليمة، وعرفت من نداء القائمة أن اسمها عالية أو هكذا اختارت أن تُسمِّي نفسها. لكن السياط التي انهالت على الأجساد كشفت فحوى الأوامر، انحنى الرجال بانكسار، ونزعوا عنهم جُرُودهم،

وكوَّموها جانباً، صاح الضابط مكرِّراً الأوامر بغضب بالغ، ثمَّ صاح التُّرْجُمَان، انحنوا ثانية، وانزعوا كلَّ شيء.

في اللحظات الموالية، حين اقترب التُّرْجُمَان من النساء، وطلب منهنَّ الأمر ذاته، أطلقنَ بهَلَع موجة من الصراخ الهستيري، وركضنَ مذعورات باتِّجاه البحر، وتدافع السجناء الذين كانوا عُراة تماماً، انهالوا على الجنود بالحجارة، وسرعان ما أحاطت بهم قَعْقَعَة البنادق والرصاص ودخان البارود والصراخ المستنفر، انحنت حليمة تخفي بحِضْنها وجه حمد، وتشيح بالتفاتة منها عن مَرأى الجثث التي سقطت، وبخار الدم الحارِّ الذي تصاعد من الصخور السوداء الباردة، اقترب الضابط ورَكَلَ بقَدَمه جُثَّة مقلوبة، لمَّا استوت على الأرض كان الوجه وجهَ كهل مقهور، له لحية رمادية وشارب كان عزيزاً، كرَّر الضابط الأوامر ثانية فيما الأيدي ما تزال على الزناد، سادت هَمْهَمَات، عَقَبَهَا صمتٌ مُطبِق، ثمَّ انحنت النساء، ونزعنَ كلَّ شيء، كلَّ شيء.

كانت المرَّة الأولى التي تستذكر فيها حليمة كلمات أُمِّها في اللحظات الأخيرة وهي تحتضر:

- حليمة، حليمة، الموت هي الستّارة.

ولم يكن يُخيَّل إليها، وهي ترى الجيران والأقرباء من أهل المَنْشِيَّة عُراة منكسرين، أنها ستتمنَّى الموت كما تتمنَّاه الآن، ولم يكن ليخطر ببالها، وهي تتعرَّى أمامهم وأمام حمد وهو يَرْمُقُهَا بنظرة حائرة مرتبكة، أن القَدَر قد يأتي بتصاريف مريعة كالتي شهدتْها الآن، أشاحت بنظراتها

باتِّجاه البحر التيراني، حيث أجبروهم على الغوص في الماء البارد، ودعك أجسادهم بمبيد السوس، بكى حمد من شدَّة البرد، واصطكَّت أسنانه، واستحال جِلْده إلى زُرْقَة قاتمة، وكانت ألسنة النيران تتصاعد على الشاطئ، تَحرُق أكوام الثياب والجُرُود التي قالوا إنها مليئة بالقمل، ألقوا لكلِّ سجين قميصاً وسروالاً مُخطَّطَيْن، وحَلَقُوا شُعُورهم ولِحَاهم، ولمَّا حَلَقُوا جديلَتَي حليمة، وألقوا بهما في النار، تحسَّست جِلْد رأسها الذي أصبح بمَلمَس بيضة مسلوقة باردة، وأيقنت أن هناك دائماً تصاريف أخرى للقَدَر أكثر انحطاطاً ممَّا قد يخطر في بالها.

هكذا، وبعد ثلاثة وخمسين يوماً من وصول ساندرو إلى واحة تريبوليتانيا، تصل إليه رسالة من جيا جارسيندا، استلمها بخفقات مرتابة وفرح انفعالي خالٍ من الطمأنينة، انتحى جانباً في زاوية من فناء المعسكر، وفتح الغلاف الذي يحمل طابعاً بريدياً بصورة الملكة مارغريتا من دون تاج، استوقفتْهُ العبارة التي جاءت بعد مَلحَمَة اعتذارات طويلة:

عزيزي ساندرو الذي عرفتُهُ في وقت قصير، لكنه لم يغبْ يوماً عن خيالي: سأُسِرُّ لك بأمر هامٍّ، هل تذكر تلك النظرة التي تأمَّلتَني بها في تلك الليلة؟ لم يسبقْ لأحد أن نظر إليَّ هكذا من قبل، إنها النظرة التي تتمنَّاها كلُّ امرأة لتغدوَ ملكة عاشقة .. جيا.

كان قد وصله أيضاً طرد مغلَّف من أُمِّه كالعادة، يحتوي على تبغ وبسكويت وملابس داخلية، وعلى غير المتوقَّع لم تُثِرْ رسالة جارسيندا في نفسه شيئاً، سوى إحساسه أنه كبر عشرات السنوات عمَّا كان عليه قبل شهرَيْن، وأن تلك المشاعر المتأجِّجة كلَّها لم تكن سوى رغوة باهتة ذابت على شاطئ المتوسِّط، أحاطت به ذكرى تلك الليلة التي عصفت به تحت تأثير الشراب، نظراتها الوَلِهَة ومداعبة أصابعها على حافَّة الكأس، بُحَّة صوتها المثيرة وهي تتحدَّث إليه كأنها قد استيقظت توَّاً من النوم، كان ثَمِلاً حقَّاً، لكنه يذكر جيِّداً أنها قالت له: حين ترغب المرأة في الارتباط تختار الأكثر ثراءً ووَجَاهَة، ثمَّ أشارت بإصبعها

إلى مكان ربطة العُنق على صدره، وتابعت: لكنها حين تعشق تختار الأكثر جاذبية. لطالما كان يخاف النساء، وخاصَّة الجامحات المتعطِّشات اللاتي يأكلنَ عاشقيهنَّ كإناث العنكبوت، وعندما فتح عينَيْه على شبابه، وجد نفسه فَتِيًّاً أكثر ممَّا ينبغي ومرغوباً مثل صنف سجائر جديد. كانت تجربته مع باتريسا الأرملة الأرستقراطية مؤلمة، رجولة مسفوحة على رصيف الوَهْم، انقياداً مجنوناً لظمأ عَبَثِي، وكان قَدَرُهُ دائماً أن يقع في حُبِّ نساء يبعدنَ عنه آلاف السنين الضوئية، اليوم وهو على بعد مجرَّة من خفقة مشاعر حقيقية تُرمِّم روحه التعسة، أدرك أن اللاتي عَبَرْنَ بحياته انطفأنَ على ربطة العنق كَعَقِبِ سيجارة غير قابل لإعادة الاشتعال، وحدها فتاة المَنْشِيَّة بائعة الحليب، التي تجاهلتْهُ بكبرياء وانفعال وسُخْط وتعالٍ، ظلَّت جَمْرَتها مشتعلة بعنفوان، وجعلتْهُ يُسلِّم بأن التجاهل هو أحد أهمِّ المصائد المؤدِّية إلى الحبِّ. باغتَهُ التفكير بها مثل صدمة، ورشقتْهُ ذِكْراها بتُهم أخرى غير الخِذلان، وجد نفسه متورِّطاً معها في حوار وَهْمي، يُبرِّر فيه معنى أن يكون جندياً، وأن يكون لسوء الطالع في طرف العدوِّ، وأن يكون في حالة عاطفية معقَّدة لا ينصاع فيها القلب لقوانين دريل، وأن تُعمِّده نيران المعارك دون أن تنزع ذاكرته، تمنَّى لو يصاب بعارض قهري، يجعله ينسى أيَّام المَنْشِيَّة، ويعود إلى ميلانو بلا ذاكرة، بلا عواطف، أو حتَّى بلا جسد.

كانت السماء مُلبَّدة بغيوم سوداء داكنة تُغطِّي

فناء المعسكر سرعان ما انفجرت بأمطار غزيرة، خيَّبت ما كان من الهدوء المتوتِّر الذي ساد طيلة أسبوع مضى. لم يكن متفائلاً حتَّى بعد توقُّف العمليات العسكرية وإحكام القبضة على المَنْشِيَّة ونفي سكَّانها التعساء، حتَّى بعد أن أعلن جوليتي رسمياً في الأسبوع الأخير من نوفمبر عن ضمِّ إقليم طَرَابُلُس كمستعمرة إيطالية، لم يكن يشعر بأيِّ تفاؤل على الإطلاق. لقد حلَّ الشتاء الذي كان مقرَّراً أن يقضيَهُ مع أُمِّه في بورتا جينوفا كما أخبره القادة في ميناء نابولي قبل الإبحار. بذل جهداً ليتذكَّر وجه أُمِّه، واستغرب كيف أن ملامحها غابت عنه منذ أن أُصيب بانهيار حادٍّ، حيث ترك بندقيَّته عند خندق الهاني، وفرّ باتِّجاه البحر، يومها لم يتمكَّن أربعة من سلاح الفرسان من ملاحقته، وعندما ألقى بنفسه في غمار الموج لفظه سريعاً دون أن يكون له فضل في إنهاء حياته، وعلى الرَّغْم من أن طبيب الحملة قد أصدر تقريره بأن الجندي ساندرو كومباريتي - الفوج الرابع والثمانون مشاة - الرَّقْم العسكري 3572B- يحتاج إلى إعادة تأهيل نفسي، ويجب إرساله فوراً إلى إيطاليا لتلقِّي العلاج، إلَّا أن قائده ذا العُنق الأحمر، وقد عَرَفَ لاحقاً أن اسمه غراند، وعد أن يُكلِّفه بأعمال أخرى إدارية بعيداً عن خطِّ النار. كما اقترح بمراسلة إلى الجنرال كانيفا أن يسمح بإقامة قُدَّاس الأحد في المعسكرات، وتكليف الكَهَنَة المصاحبين للحملة بتلقِّي الاعترافات والإرشاد الروحي لمساعدة الجنود على تخطِّي الأزمات النفسية، مذكِّراً بأن آخر ما قام به الكَهَنَة الكُسالى الذين رافقوا الحملة من بعد

حفل توزيع هدايا الصُّلْبان على الجنود هو صلوات التجنيز الغيابي على جنود البرساليري الذين قَضَوا في بئر الهاني. ولمَّا سمح رفائيل ريتش، الذي أخبرناكم سابقاً أنه أصبح والي طَرَابُلُس الجديد، بإقامة القُدَّاس، وجاء الكاهن ليصدح بصلواته في الملحق الذي بناه النجَّارون سريعاً، ووزَّعوا فيه عدداً مناسباً من المقاعد، لم يجد أحداً من الجنود المؤمنين الذين قيل له إنهم بانتظار أن يُدلوا بسرِّ الاعتراف. في الأحد الذي يليه شغلت سوريلات الصليب الأحمر بثيابهنَّ البيضاء القصيرة نصف عدد المقاعد، ما سبَّب صداماً تلاكُميَّاً بين الجنود الذين لم يشاهدوا سيقاناً عارية منذ مغادرتهم شواطئ نابولي. اضطرَّ ساندرو إلى العودة صبيحة اليوم التالي، وأمام كاهن ظريف، على الرَّغْم ممَّا أحاط به نفسه من ملامح الوقار، قال بهدوء:

- لم يكن في نِيَّتي أن أصبح قاتلاً، ولا جندياً، أُمِّي كانت امرأة متديِّنة جدَّاً، أخي الأكبر أيضاً، وأبي، على الرَّغْم من نَزَقِهِ، لكنه يكره القتل والحروب. ماتت شقيقتي كمَلَاك طيِّب دون معصية. الآن تنتابني الشكوك تجاه كلِّ شيء، لماذا قذفتْني بلادي إلى صُندُوق الرَّمْل الحارق؟ لماذا حكمت عليَّ بأن أكون قاتلاً؟ كنتُ مواطناً طيِّباً حفظتُ الوصايا العشر في أبرشيَّة سان لورينزو، حيث أخبرنا الأسقف في الوصية الخامسة أن القتل مُحرَّم، لكنني وجدتُ نفسي قاتلاً، قال لا تقتلْ، لكنني أجهزتُ على الرجال العُزَّل في الشوارع، ثمَّ على امرأة في دارها، كان لديها طفلان يتيمان، ولكَ أن تتخيَّل أمراً أكثر بشاعة

من كلِّ ما تقدَّم، كنتُ قد أُغرمتُ بابنتها الصَّبِيَّة، ونفيتُ عن نفسي فكرة أن أكون شرِّيراً، ثمَّ باغتُّها بفعلتي الآثمة، قرأتُ الاحتقار في عينَيْها وهي ترميني بذَنْبي، أتذكَّر ما كان يقوله أسقف الأبرشيَّة إنه يجب علينا أن نكره الأفعال القبيحة ولا نكره فاعلها، أن نَكْرهَ الخطيئة ولا نكره الخاطئَ، إنه لأمر عجيب أن يَحدُث ذلك، نحن هنا يا أبتِ لا نرى الخطيئة ولا نعرف ما هي، لكننا نقتل فاعلها.

سكت الكاهن طويلاً، كأنه يستذكر كتاباً مَخفيَّاً، ثمَّ قال:

- أَلَا ترى أن قتال العرب ينضوي على كثير من الحُبِّ؟ أنتَ لو راجعت جيِّداً الوصايا العشر تجدها لا تختلف مع مفهوم الخطايا التي نحاربها الآن عند العرب، لربَّما نتعجَّب كيف يمكن أن نكره فعلاً قبيحاً ولا نكره صاحبه، لكنْ، انظرْ إلى نفسِكَ ستجد أنكَ تكره أفعالكَ القبيحة ولا تكرهُ نفسكَ، تكرهُ غروركَ وطمعكَ وقساوتكَ، لكنكَ لن تكرهَ نفسكَ أبداً. المسيحيَّة لا تعني أن محبَّتكَ لنفسكَ لا تستوجب إخضاعها للعقاب، هذا ينطبق على محبَّتكَ لعدوِّكَ أيضاً، وكما أن من حقِّ القاضي أن يحكم بالإعدام على مجرم قاتل، فإن من حقِّ الجندي المسيحيِّ أن يقتل عدوَّاً باغياً.

تراجع قليلاً عن منصَّة الاعتراف، وشعر بأن يقينه الإيماني على وشك التلاشي أمام هذا الكاهن المُتحذلِق، تذكَّر صلاته الأخيرة في كنيسة الأبرشيَّة، في عيد القيامة، حيث رافق ثُلَّة من الجنود إلى القُدَّاس، وسمع موعظة الكاهن

وهو يقول: «عندما تكون في الحرب لا تقتل وأنتَ مُقطَّب الجبين كأن في ذلك شيئاً يدعو إلى الخجل، هذا يسلبكَ إحساساً مجيداً يحقُّ لكَ أن تفتخر به، إنه الإحساس بالبهجة والولاء الصادق. ولكنْ، فيما نحن نُمِيت ونُعاقِب ينبغي لنا أن نرجوَ لعدوِّنا الإصلاح والاستقامة»، يومها انتابه هاجس أن الرُّهبان والكَهَنَة والشَّمَامِسَة قد تلقَّوا تعليمات الكرسي الرسولي بحشد الخطاب الديني من أجل الحملة العسكرية على تريبوليتانيا، اليوم تأكَّد من هاجسه، وأن كلَّ ما في إيطاليا يسير وَفْق منظومة الحرب، بل إن إيطاليا برُمَّتها ما هي إلَّا آلة ضخمة تسحق بِتُرُوسها الأجساد كلَّها، لتُحيلها إلى مادَّة للاستهلاك وَفْق مصالح الرأسمالية الجديدة.

كان المطر قد توقَّف عن الهطول، وانزلقت بقية قطراته على أطراف وُريقات السرو، وعبر حوافّ الأسقف الخشبية المغطَّاة بألواح الزنك، وغشيت الأنوف رائحة الأمونيا من تحت الأشجار التي يتبوَّل تحتها الجنود، وفي البِرَك التي خلَّفتْها المزاريب تقافزت ضفادع شَبِقَة بدينة على نحو مُذهِل، ونقَّت مبتهجة بعُفُونة الغدران. خفَّ ساندرو باتِّجاه عنبر الطعام، وهنالك قابل الضابط غراند، فحيَّاه من دون ابتسام، رفع الآخر ملعقة الحساء ردَّاً للتحية، ودعاه للجلوس، كان الغداء مكوَّناً من حساء الفاصوليا والأرز وقِطَع دجاج مسلوقة مع الزعتر، اغترف ساندرو الحساء بشهية نافثاً من فمه بخاراً كثيفاً برائحة التوابل، وفيما غراند يطحن الدجاج بفكَّيْه القويَّيْن وتندفع الدماء إلى عُنقه

بمزيد من الاحمرار، أخبر ساندرو أنه سيتدبَّر له أمر مرافقته إلى حفل سيُقيمه الضبَّاط ابتهاجاً بإعلان جوليتي الأخير القاضي بضَمِّ طَرَابُلُس.

- قلتَ إنه احتفال خاصٌّ بالضبَّاط.

- نعم، لكنكَ ستؤدِّي فيه مهمَّة.

رفع عينَيْه عن الصحن، وحدَّق في عينَي غراند مُنتظِراً التفاصيل.

- مهمَّة ممتعة جدّاً، أخبرتَني سابقاً أنكَ كنتَ تعمل عازف كورال كَنَسِيّاً.

- نعم.

- حسناً، لدينا بيانو كبير في القصر، نحن بحاجة لمَنْ يعزف مقطوعات رومانسية لسهرة تمتدُّ حتَّى الصباح.

- بيانو؟ في تريبوليتانيا؟

- بيانو مُذهِل في قصرٍ باشويٍّ، اعتنِ بمظهركَ، ستكون معنا فتيات أيضاً.

- متى ذلك؟

- عند الساعة السادسة، المكان في سيدي المصري. سيأخذنا سائق إلى هناك.

قضى فترة ما بعد الغداء في كَيِّ سترة الكاروهات المخبَّأة في صُندُوق ثيابه منذ شهور، استعار مِكْوَاة الفحم من الجندي الأصلع، فألقى إليه بكومة ثياب مجعَّدة طالباً ببرغماتية نموذجية أن يستثمر فيها ما تبقَّى من حرارة الفحم، لم يمتعضْ على أيِّ حال، ولمَّا انتهى وألقى نظرة على هيئته في مرآة الحلاقة، شعر كما لو أنه

على أعتاب فيرونا من أجل موعد غرامي، قميص نظيف وسترة مَكوِيَّة وشارب رفيع محفوف بعناية، توجَّه إلى العنبر المقابل، ليعيد المِكْوَاة إلى الجندي الأصلع، تركها على سريره لمَّا وجده خالياً في الوقت الذي كان رفاقه جميعهم يغطُّون في النوم. وصل إلى عنبر الضبَّاط قبل الموعد بنصف ساعة، فوجد غراند منحنياً على عُدَّة الحلاقة، ويُخفِّف من حساسية ذقنه المحمرِّ بطبقة من بودرة الأطفال، انحنى على منضدة للصحف، وفيما كان يتصفَّح العدد الجديد الذي وصل من كورييري تنبَّه إلى هَمْهَمَة تأتي من انعطافة في آخر الممرِّ المظلم، تسلَّل بفضول مُستطلِعاً المكان، وما إن مَدَّ وجهه من انفراجة باب الغرفة حتَّى انفصل رجلان عاريان عن بعضهما، أحدهما الجندي الأصلع صاحب المِكْوَاة، أمَّا الآخر، فقد اندفع نحو كومة ثيابه، ونزع مسدَّساً من جيب سترته التي تحمل أربع نجمات ذهبية على الكتفِيَّتَيْن، رشق المسدَّس في أُذُن ساندرو:

إذا فتحتَ فمكَ، فهذه لكَ، هل فهمتَ؟

نعم، سيِّدي الجنرال.

دسَّ وجهه في أوراق الصحيفة، حيث يتصدَّر مقال المراسل لويجي بارزيني صفحته الأولى، قرأ متعجِّباً:

«كانت غلطتنا أننا لم ننسب إلى العنصر العربي المتخلِّف قيمة في نزاعنا. كنَّا قد استندنا إلى الاعتقاد الخاطئ بأن العرب أعداء تقليديون للأتراك، وبالتالي فإن العرب هم أصدقاؤنا. وكنَّا نعتقد أنه سيتمُّ إثبات ذلك، فتعاملنا معهم

كأصدقاء، غير أنهم لم يُقدِّروا هذه الصداقة، أخطؤوا بسهولة في طبيعة مجاملتنا، وأخطؤوا في الاعتقاد أنها ضعف وخوف، فالهوية العربية مشبوهة ومثيرة للشكِّ ومريبة مثل الشعوب المتخلِّفة جميعهم حين تواجه واقعاً جديداً. إن عقل العربي لا يستوعب أُسُس الحضارة والإنسانية، ولا يُلقي نظرة على إمكانيات التقدُّم، ولا يستطيع أن يتخيَّل آثار نظام جديد على الازدهار المستقبلي للبلاد. إن منظر المرفأ المليء بالسفن، المليء بالنشاط والعمل لا يعني شيئاً للعربي الذي ينظر إليه بالنظرة اللامبالية نفسها التي ينظر بها إلى الميناء التركي البائس. ولو لم تكن الهوية العربية متخلِّفة هكذا، لكانت قد تقدَّمت معنا، ولم تقع فريسة للسيطرة الأوروبية»(7).

عندما انتهى غراند من حلاقة وجهه وارتداء ثيابه كان ساندرو مُنكبَّاً على السطور الأخيرة، حتَّى إنه لم يلحظ الضبَّاط وهم يقفون باحترام بالغ للجنرال وقد عاد للتوِّ من أداء مهمَّة في انعطافة الممرِّ المظلم، فقد كان ذهنه معلَّقاً بخاتمة المقال التي تقول: «العربي مثل طفل شرس، أعطِه قليلاً من الحلوى، وفي الوقت المناسب اجلدْهُ بالسَّوْط».

دَلَفَ إلى الصُّندُوق الخلفي للشاحنة مع مجموعة من جنود الحراسة، حيث توقَّفت بهم أمام سياج أبيض منخفض، تنحدر عنه أَكَمَات من الياسمين وزهور أخرى حمراء تشبه أجراساً صغيرة. استقبلهم عند مدخل القصر موظَّفون يرتدون

سترات سوداء وقُبَّعات مزيَّنة بالريش، وكان غراند وهو يسير بمحاذاة ساندرو يمدُّ يده على جانبَيْه مقتطِفاً بعض البراعم الصغيرة لنباتات نادرة مزروعة في أُصُص على الجانبَيْن، سرعان ما يلقيها أرضاً ويدوسها بحذائه مخلِّفاً عصارة خضراء على البلاط الرخامي، ولمَّا ولج قاعة الاحتفال وسطعت أمامه أضواء ثُريَّات الكريستال المذهَّبة والتماثيل العجيبة والستائر المُخْمَلِيَّة المعرّشة بتطريز بديع، التفت نحو ساندرو راسماً بحاجبَيْه علامَتَي استفهام كبيرتَيْن، وتمتم: «إنها بلا شكٍّ طفرة حضارية، ليس لها علاقة بصندوق الرَّمْل».

في عُجَالَة ألقى الجنرال سبينللي كلمة مقتضبة، هنَّأ الضبَّاط بالقرار الذي عدَّهُ فتحاً قومياً لجوليتي، وأعرب عن اعتذار كانيفا لانشغاله بمراسلات مهمَّة مع القيادة العامَّة في روما، ابتسم الضبَّاط متغاضين عن الكذبة الأخيرة، فيما انشغل عنه مراسلو الصحف بالتقاط صور لفتيات شقراوات يرتدينَ فساتين قصيرة، ويتضاحكنَ بغُنْج، وما إن شاهدنَ البيانو الأسود البرَّاق حتَّى هرعنَ نحو ساندرو، وأجبرنَهُ بلهجة نابولية على أن يعزف للتوِّ أُغنيَّة أدواردو كابو (أو سولي ميو)، الأُغنيَّة التي لطالما أحبَّها وغنَّاها على مسرح معهد الصحافة في احتفالات نهاية العام، ودندنها مع الجنود في عنابر المستجدِّين، شعر بغمرة من الفرح تنفض عنه غبار الخندق الكئيب، واستغرق في مراقبة الفتيات المتبرِّجات بعناية وهنَّ يرقصنَ مع ضبَّاط مرتبكين، يمسكون بأذرعهنَّ كما لو كانت أعقاب بنادق، ولمح ضمن الصحفيِّيْن بارزيني

مراسل كوربييري الذي حيَّاه من بعيد، ثمَّ اقترب منه يحمل صحناً من حلوى البارميجان، ومعه مصوِّر تابع لصحيفة لا بروباجاندا النابولية، اعتذر ساندرو عن التصوير، لأن غراند كان قد حذَّره من ذلك، مبرِّراً أن سبب دعوة الصحافة للحفل هو فقط رغبة كانيفا في الترويج لفكرة استتباب الأمر له في طَرَابُلُس ودَرْء المكائد التي تُحاك له عند جولييتي. انضمَّ إليهم بعد قليل شخص في منتصف العُمُر، يميل إلى الامتلاء، له شارب شامخ وخليجان أصلعان على جانبَي جبهته مع نظرة حادَّة من عينَيْن خضراوَيْن، قال إن اسمه باولو فاليرا، ويكتب لصالح صحيفة (لا فولا)، انتحى جانباً بساندرو وسأله:

- هل أنتَ حقَّاً جندي؟

- هل يهمُّكَ الأمر كثيراً؟

- لا، ولكنني سمعتُ أنكَ تخرَّجتَ في معهد الصحافة، وأرى أمامي الآن شابَّاً نظيفاً يراقص الأوتار كما لو أنه لم يلمس الزناد يوماً.

- يبدو أن لديكَ تفاصيل كاملة عنِّي.

- أنا صحفي، يجب أن يكون لديَّ حسٌّ استخباراتي.

- حسنا، يؤسفني أن أقول لا يمكنني التعاون معكَ.

- ومَنْ قال إنني أريد التعاون معكَ؟

- كلُّهم يطلبون من الجنود تفاصيل عمَّا يحدث في الجبهات، ثمَّ يُلفِّقون أشياء مختلفة.

- لستُ منهم.

- ماذا تريد منِّي إذن؟

- أردتُ فقط أن أقول لكَ إن الولوغ في الدم هو خِزْيٌ لرجل الصحافة.

طأطأ ومرَّر أصابعه على خَدِّه كَمنْ يمسح بصقة، كان لديه إحساس دائم بأنه لن يموت برصاصة واحدة، وأن أشياء كثيرة يمكن أن تترك في القلب ثقوباً دائمة للنزيف، أشياء عابرة تحيل الإنسان إلى شبح مهزوم كأنه يقاتل منذ ثلاثة آلاف عام، لماذا لم يكن في مكانه الصحيح؟! تساءل، لماذا تخترقه رصاصات غير مرئية؟! نظرات الرعب في عيون الضحايا، مشاعر احتقار الذات، وصمة العار والحقائق التي سيكتبها عنه التاريخ يوماً ما، شعر كم كان وضيعاً وتافهاً أمام فاليرا الذي تجلَّى أمامه كنبيٍّ، نظر إلى ما تبقَّى منه وهو يغادر مديراً ظهره، وللمرَّة الأولى يشعر بأن هنالك رجلاً شاهقاً جدَّاً، فقط لأنه يقول الحقيقة.

كان الوقت المخصَّص للمراسلين قد انتهى، اعتذر منهم سبينيللي متذرِّعاً بخصوصية الضبَّاط في قضاء ليلة استثنائية مع فتيات، فحملوا مُعَدَّاتهم وغادروا، عاد ساندرو إلى البيانو وعزف مقاطع لفيردي كما طلب منه ضابط يغازل فتاة بليدة، ولم يكن قد ثمل تماماً رَغْم أنه احتسى كأساً ثانية من الفودكا القوية، لكن شيئاً يشبه الضجيج دار برأسه وأخذ يتزايد ويقترب شيئاً فشيئاً، الضبَّاط أيضاً وهم في ذُرْوة العناق الرومانسي اعتراهم الارتباك، وسحب كلٌّ منهم فتاته كما لو أنه يَجُرُّ ممسحة على البلاط،

وسرعان ما عمَّ الهَلَع والصراخ حين دوَّى الرصاص في الخارج، واكتشفوا أنهم محاصرون بهجوم جديد من المقاتلين العرب. في تلك الليلة استطاع ساندرو أن ينجو من رصاصة اخترقت حافَّة النافذة متخطِّية رأسه، واستقرَّت في صُندُوق البيانو، ومع ذلك تحامل على الصدمة، وقفز مع الجموع الراكضة نحو الشاحنات تحت غطاء كثيف من رصاص جنود الحراسة وهم يحاولون تشتيت الهجوم إلى حين تأمين ابتعاد الشاحنات، وبعد مقتل ثلاثة من الجنود وفِرَار الآخرين، ربط العرب البيانو الكبير بالحبال، وجرُّوه كالمحراث خلف الجياد مُحدِثاً صريراً عالياً فوق الحَصَى، خمَّن الضبَّاط أن عمَّنْويل الثالث نفسه قد سمعه في بلاطه المَلَكِيِّ.

(7) لويجي بارزيني - صحيفة كوريري ديلا سيرا.

16

على ضوء الفجر الشحيح في القبو المخصَّص للنوم تراقب حليمة الأجساد الهزيلة، العظام المعقوفة تحت الأغطية، حيث يتكوَّم السجناء الذين بقوا أحياء على بعضهم البعض متأوِّهين من البرد بوقار مكابر، تُقلِّب عينَيْها: مَنْ تراه قد مات الآن؟ هنالك المرأة الحامل، مازالت تهذي وتغرق في العَرَق البارد، تصطكُّ أسنانها، ثمَّ تذهب في تشنُّجات طويلة، قيل إنها مصابة بداء (بوجنب) طلبت عالية من مدير السجن أن يعطيَها بعض الزيت لتُدفِئ لها جنبَيْها، قال إنه أحال رسالة إلى وزارة المستعمرات لمخاطبة متعهِّد الوجبات لإضافة الزيت إلى قائمة الطعام، لكن الوزارة عدَّت ذلك تحميلاً إضافياً على التكاليف، يُهيِّئ سانحة للفساد.

تسعل حليمة، وتدفن رأسها في الوسادة المَحشوَّة بالتبن، تهجس بتوق إلى صباحات المَنْشِيَّة، هنالك في ركن آخر من العالم، حيث الهواء المشبَع بالرَّيْحَان وزهر الليمون، رائحة الشاي والخبز والدفء المنبعث من موقد الفحم، صياح الدِّيَكَة وخُوار البقرة وسَكْسَكَة الماء من الدِّلَاء المثقوبة، تنقلب على الجانب الآخر، تسمع صوت أطفال يلعبون، وضجيج بهائم في طريقها إلى الحقول، نداء أُمِّها وهي تُحضِّر دَوَارِق الحليب: «حليمة، حليمة، طلعت الشمس ومازلتِ نائمة، قومي يا بنت». تقفز من فراشها، تسعل بشدَّة، وتجتاحها الرائحة الخانقة من خلف سياج المَقْبَرَة التي خصَّصتْها السلطات المحلِّيَّة للعرب، ها قد

جاء الحارسان بنقَّالة الموتى، وقفا يراقبان المرأة المتشنِّجة، ثمَّ كشفا عن وجه الرجل المصاب بنزلة معوية، كان مُزرَّقاً ومتصلِّباً مثل لوح خشبي، سمعت السجناء يتمتمون بالدعاء، يتشهَّدون له ويُشيِّعونه بنظراتهم، وتحت الأغطية أجهشوا بالبكاء.

بعد قليل تستغرق المرأة الحامل في حشرجات خشنة، تشهق وتنتفض وتفتح فمها في احتضار حارٍّ مُنازِعةً الموتَ بصلابة مُدهِشَة، مضت الظهيرة وهي في سجالها المضني مع الموت قافزة على المراحل كلِّها، فأخرجت رغوة بيضاء من فمها، ثمَّ خضراء، ومدَّت أصابع قدمَيْها باستسلام، لكن الروح ما زالت متشبِّثة بالجسد، قالت عالية: «علينا أن نفعل شيئاً لترتاح المسكينة»، ثمَّ أسدلت ستارة ببطَّانية تحجبها عن الرجال، بركت حليمة على بطن المرأة المتكوِّر، وأسندت امرأة أخرى الساقَيْن المنفرجَتَيْن، ودفعت عالية ذراعَيْها ما بين الساقَيْن، هممت النساء بوَجَل، بخوف، بتضرُّع، بأمل، بيقين، برجاء، وألهجنَ بالدعاء، ثمَّ سحبت عالية ذراعَيْها، وأخرجت كتلة لحمية زرقاء نابضة، ما إن مسحت الأغشية حتَّى صرخ الوليد، زغردت إحداهنَّ، وكبَّر بعض الرجال، وضحك أولاد بحاجة إلى الفرح، أمَّا عالية، فقد وضعت الطفل على صدر أُمِّه، ملامسة وجهه لشفتَيْها اليابستَيْن، بلَّلت رطوبة الجسد الغضِّ جفاف الموت الجاثم على الشفتَيْن، سال خيط من الندى على الشقوق العطشى، فأينعت بابتسامة، ثمَّ أغمضت عينَيْها على مشهدها الأخير.

ترتفع شمس واهنة على جزيرة أوستيكا، جزيرة الرعب القوطي ذات الماضي الأسود على مرِّ العصور: أطلقوا عليها اسم المحروقة حين أحرقتْها حِمَم البراكين، وجزيرة الأشباح لمَّا سكنتْها أشباح البحَّارة القدماء الذين غرقوا في البحر التيراني ولم يدفنهم أحد، ثمَّ جزيرة المجانين، حين كان البحَّارة التعساء ينقادون نحو أضواء منارة غامضة، وعندما يطؤون الجزيرة ولا يجدون شيئاً سوى قهقهات في الظلام يفقدون عقولهم. ثمَّ في وقت لاحق أصبحت جزيرة العظام حين امتلأت بعظام ستَّة آلاف جندي من جيش هنيبعل قَضَوا بالطاعون في الحرب البونيقية، ثمَّ جزيرة القراصنة حين أصبحت نقطة مَنسيَّة في البحر لأربعة قرون، لا أحد يعرف عنها شيئاً إلَّا قراصنة بَربَر يذبحون كلَّ مَنْ يقترب منها. أمَّا الآن، فهنالك جنود الكارابينيري يزمجرون بكلابيشهم وبنادقهم وسياطهم وكلابهم، ينهض السجناء بعناء، ويلتئمون في طابور لا يحمل أيَّ معنى سوى افتتاحية نهار بائس، هكذا مضت ثلاثة وعشرون يوماً من حياة حليمة في جزيرة أوستيكا وهي مُقيَّدة بالبرد والجوع والسُّعال والطوابير، طابور في الصباح الباكر للتحقُّق من العدد، وآخرٌ لعرض التعليمات، ثمَّ عند الظهيرة، لكي لا يعتاد السجناء على الكسل، وفي الساعة الخامسة لتوزيع الخبز والحساء، ثمَّ في الليل للتحقُّق من العدد وشَطْب أسماء الموتى.

ذكَّرهم المترجم اليهودي بلؤم مُبيَّت، «إنها جزيرة الموت المَنسيَّة»، ثمَّ سكت مراقباً عيونهم

وهم يلتفتون إلى البحر الغادر، وإلى الصخور الجرداء المنتصبة كرؤوس ثعابين، وإلى السماء التي تشاهد بصمت، وإلى المَقْبَرَة المكان الوحيد الذي فتح ذراعَيْه لهم، ثمَّ يطأطئون نحو صدورهم حيث الشيء الذي يحملونه بدواخلهم. أوقفوهم في طابور طويل بانتظار لجنة ستأخذ بصماتهم، وتلتقط لهم صوراً أرشيفية حتَّى يسهل القبض عليهم إذا ما حاولوا الفِرَار، يتابع المترجم وهو يمشِّط بأصابعه شَعْر لحيته الحمراء، قائلاً: «لقد أصبحت الجزيرة جديرة بالاسم تماماً». يومئذ تحلَّقوا مستفهمين من رفيقهم الحاجِّ المبروك الذي تعلَّم الرطانة لمَّا كان بخدمة طبيب من نابولي يدير مستشفى فرنشسكاني في مَحَلَّة باب البحر منذ عهد نامق باشا. وعندما جاء أعضاء اللجنة ضربوا المبروك بأخمص البندقية، لأنه كان مصاباً بالفَرْطَس، في اليوم التالي صحا السجناء على ضجيج يأتي من خارج السياج ورشق بالحجارة والزجاجات الفارغة، وصرخات جماهير غاضبة تطالب بشيء ما، سارع مدير السجن بتعزيز قوَّاته بمزيد من شرطة الكارابينيري، وتحلَّق السجناء ثانية حول المبروك غير مبالين بضلف الجِلْد النتن المتساقط من رأسه، قال لهم: «إنهم سكَّان الجزيرة يطالبون بطردنا لأننا متَّسخون»، جاء الجنود وأحكموا إغلاق الباب على السجناء، فتدافعوا نحو النوافذ الحديدية المضلَّعة بالقضبان، وراقبوا بفضول، فيما تابع المبروك مستمعاً إلى الجدال المرتفع في الفناء:

- قالوا إنهم لم يعد باستطاعتهم أكل السمك.

- لماذا؟ هل يتوحَّمون؟ سأل أحد السجناء وضحك الآخرون.

- قالوا إن البحر مُلوَّث بجُثث الليبيِّيْن.

بعد ساعة انضمَّ إليهم عميد بلدية أوستيكا ونائب دائرتها الانتخابية في البرلمان، ونائب وزير المستعمرات، تعالت الأصوات وسمح مدير السجن بالتداول مع سبعة ممثِّلين عن السكَّان، من بينهم امرأتان بدينتان على نحو لافت، كان فيما قالتْهُ إحداهما:

- لا بدَّ من عزل القافلة القاتلة عزلاً تامَّاً، ووضعهم في مخيَّمات ريفية، من أجل سلامة السكَّان.

- لا جدال في أن أوستيكا الآن جزيرة منكوبة. تسبَّب عن إلقاء الباخرة سان جورج لجُثث العرب الموتى إغلاق سوق السمك، لأن السكَّان امتنعوا عن تناوُله، ذلك مُقرِف جدَّاً. قالت الأخرى.

- ليس هذا فحسب، يا زميلتي، هنالك أيضاً المَقْبَرَة الجديدة التي خُصِّصت لهم، لقد نبشت الكلاب قبور الموتى، وأخرجت الجثث، سوف نشاهد الأشباح المخيفة تتجوَّل معنا في الطُّرُقات.

عادت الأخرى لتقول:

- على كلٍّ، ليس هذا بالشيء الذي يعنينا كثيراً، بقَدْر هؤلاء العرب الأحياء، بأجسادهم الهزيلة، يبدون غير آدميِّيْن على الإطلاق.

***

في يوم آخر كانت السماء والأرض بلون واحد رمادي كئيب، تحت زوابع البرق، تَدَافَعَ السجناء من الفناء باتِّجاه العنبر المسقوف المخصَّص للنوم، وجلسوا مُترقِّبين مطراً من دون بهجة، شدُّوا البطاطين على أجسادهم الهزيلة، واقتعدوا الأرض متلاصقين متقاسمين الحرارة الضئيلة المنبعثة من الأجساد، سمعت حليمة صرير أسنان الأطفال، فطوَّقت يَدَي حمد بين كفَّيْها ونفخت فيهما أنفاساً حارَّة، كانت أصابعه الصغيرة تَنقُران أبواب ذكرياتها البعيدة وهي طفلة في السابعة تركض في شوارع المَنْشِيَّة متعلِّقة بذراع بشير حين أرسلتْها أُمُّها برُفْقته إلى خَلْوة تحفيظ القرآن، كان الابن البِكْر لزوجَيْن سعيدَيْن، أب يعمل في مرسى الحواتة وأُمّ تنتظره بالسِّوَاك والحِنَّاء وراء المور، تعلَّم القراءة والكتابة وحفظ القرآن في جامع سيدي شائب العين، هكذا وجدت نفسها ترافقه إلى الجامع بتوصية مستعطِفة من أُمِّها، «حليمة أمانة في عُنقك، يا بشير»، تغمره المسؤولية بتباشير الرجولة، يستشعر دبيبها في عروقه، يبتسم ويحمل لها لوحها بيده مُطوِّقاً بالأخرى يدها البضَّة الصغيرة وهي تنكمش في راحته مثل رأس أرنب صغير، لطالما خشيَ أن تفلت يدها من يده أو أن تقع فتُجرَح أو يُلطِّخها الوحل، حتَّى بعد أن كبر وصار شابّاً اكتشفت أن يده تُطوِّق يدها بشكل غير مَرئِي. تتزاحم محطَّات الطفولة والصبا، يُطلُّ عليها عائداً من المدرسة الرشدية، كان يطمح أن يصبح جندياً يرتدي طربوش الجَنْدَرْمَة، ليأسر قلبها كما يقول لها دائماً، لكنها مأسورة به هكذا، بِجَرْدِهِ العربي

الأبيض الفضفاض، بوجهه الأسمر وخطِّ شاربه الكحيل، كانت دائماً عاشقة صغيرة تَرمُقُهُ بعينَيْها البرَّاقتَيْن من دون أن تسمح له بالاقتراب، وفي المرَّة الوحيدة التي تحايل عليها ليُقبِّلها ذات ليلة مقمرة، أدارت وجهها سريعاً، فوقعت قُبلته على زاوية خدِّها، وتطايرت بقيَّتها في الفراغ.

جذبت عالية حمداً من حِضْن أُخته، وأحكمت الدِّثَار حول بدنه ورأسه، ولفَّت جزءاً منه حول أنفه وفمه، مُبقِيةً على عينَيْن كرويَّتَيْن تَبرُقان كقُنفُذ ظريف، وكانت حليمة وهي تجلس قُبَالَتها، تتأمَّل وجهها الخمسيني الأقرب إلى لون الخضرة من الاسمرار، بتجاعيدها الصغيرة وابتسامتها الهاربة من تحت الغطاء، تفكِّر في العجينة التي صنع الله منها الناس، لا شكَّ أن عالية قُدَّت من طين مختلف، هو نفسه الذي صُنع منه الزيتون والقمح والرُّطَب والأعياد، وأكثر ما يثير دهشة حليمة، وقد كانت تظنُّ أن زمن الدهشة قد ولَّى منذ غادرت واحة المَنْشِيَّة، هي تلك الأمومة الراسخة التي لا تفارقها، كنحلة نشيطة بإمكانها دائماً أن تجد شيئاً لتفعله، تَكنُس أو تنشر الأغطية أو تُطعِم مريضاً أو تطارد أسراب القمل من رؤوس الأطفال، سألتْها إن كان لديها أولاد أجابت:

- أنا وحيدة، تزوَّجتُ مرتَيْن ولم أُرزَق بأطفال، لكن أبناء الزنقة كلُّهم أولادي.

- أُراهن أنهم اعتقلوكِ وأنتِ تحاولين مساعدة أحد.

- لا، كنَّا نتفرَّج على شابٍّ أعدموه.

- يا إلهي!

- كان شابّاً في العشرين أو أصغر بقليل، جميل الطلعة ونظيف الجَرْد، قبضوا عليه وهو يحاول التسلُّل إلى مدرسة الصنائع، كان ذلك قبل ليلة واحدة من ليلة الترحيل.

- في ذلك الوقت نحن كنّا محبوسين في مدرسة الصنائع.

- ربّما كان يحاول إنقاذ المحابيس، كان مُكبَّل اليدَيْن بسلسلة يقبض على طرفها جندي طلياني، جاء البرّاحة، وطلبوا منّا الخروج من بيوتنا لحضور المحكمة العسكرية التي نُصبت في الشارع للحُكْم على الشابّ، كان النداء مروِّعاً «كلُّ مَنْ يرفض الحضور يقتل رَمْيَاً بالرصاص». خرجنا، لم تكن المحكمة إلّا طاولة كبيرة، عليها أقلام وأوراق وكُرسيَّيْن، يجلس عليهما ضابطان شائخان مُدجَّجان بالأوسمة، ومن خلفهما كتيبة جنود. رأيتُ الشابَّ يُحدِّق في وجوه محاكميه بكبرياء ومن دون خوف، يستمع بهدوء ويردُّ باقتضاب خالٍ من الانفعال، «نعم، كنتُ بجوار مدرسة الصنائع، لأن لا شيء يمنع من ذلك»، ولم يضف شيئاً واحداً بعدها. دامت المحاكمة قرابة الساعة، ثمَّ طلب ضابط المحكمة تنفيذ حُكْم الإعدام في الشابّ، فأشاح بنظره بعيداً دون أن يتفوَّه بكلمة، سألوه إن كان قد سمع منطوق الحُكْم، قال: «نعم، سمعتُ الحُكْم الجائر»، فصاح الضابط بانفعال مهزوم: «خذوا عنّي هذا المعتوه»، فأخذوا المسكين، وطلبوا منّا جميعاً الانتقال إلى مكان التنفيذ، وصلنا إلى تحت سور

القلعة الإسبانية في ركن نَتِن، جعله الجنود لقضاء الحاجة، وصار لزاماً علينا أن ندوسَ على أكوام البراز قريباً من مكان التنفيذ، بعد دقائق، أحضروا الشابَّ ومَرَقَ من أمامنا كعريس، عيناه السوداوان الواسعتان من دون دموع، زَغَبُ الشباب الأسود على ذقنه، الطمأنينة المُشعَّة على مُحيَّاه. دفعه الجنود للجلوس أرضاً وإعطاء ظهره لهم، قالوا: «لا بدَّ أن نطلق النار من الخلف على كلِّ مَنْ يخون ملك إيطاليا»، ثمَّ تنكَّبوا البنادق على أكتافهم، وأطلقوا الرصاص، خمس رصاصات، عشراً، عشرين، ثلاثين رصاصة ربَّما، والشابُّ ما زال جالساً، وجَرْده ساكن بدون حَرَاك، الحقُّ يُقال، ارتبكَ الجميع بمَنْ فيهم الضابطان، واختفيا في مكان ما للتشاور، وكنَّا نتوقَّع بالعَشَم الإنساني أن يقرِّرا العفو عنه، لكنهما عادا ثانية وأعطيا الإشارة لإعادة التنفيذ. بعد أن لفُّوا الجَرْد على جسده كما يُلَفُّ الكَفَن، أَطلَقُوا، وأَطلَقُوا، وربَّما في الرصاصة الخمسين رأيناه وهو ينطوي شيئاً فشيئاً، ثمَّ يجثو ساجداً كما لو كان في صلاة، بعدها حملوه مضرَّجاً بدمه، وحوشونا جميعاً تحت أعقاب البنادق حتَّى ألقوا بنا في مدرسة الصنائع.

هطل قليل من مطر يَندِف كنشارة الخشب، وفيما توشك قطراته على ملامسة الأرض تأخذه الريح بعيداً، بعيداً جدَّاً، مخلِّفة صريراً مُوحِشاً، ووَجَعاً يَنقُر بعدد الرصاصات الخمسين، سألتُ الفتاة بوَجَل:

- صِفِيْهِ لي.

- لا يمكنني أن أنسى ملامحه الجميلة، أسمر

بشَعْر شديد السواد، شارب صغير، لكنه داكن مثل خطِّ الفحم، مربوع الطول، له نقرة في ذقنه ....

- آآآه يا عالية، آآآه يا قلبي.

17

حين وطأت حليمة أرض السجن الجديد في القلعة المُعتِمَة ذات البرج الأسطواني الذي يشبه قصر الغولة في أسطورة حبّ الرمّان، انتابها إحساس غامض بأنها وصلت مستقرَّها الأخير، وَكَزَتْها عالية مُوبِّخة: «فال الله ولا فالك، يا بنت»، ابتسمت وقبل أن تُجيب قاطَعَها السُّعال الحاد، هذه المرَّة مصحوباً بكتل من الدم والبَلْغَم، وكلّما نظرت إلى البرج المخيف تستشعر خطوات غول الموت مرتدياً جلبابه الطويل ومُخفياً وجهه وراء قناع أسود.

كانت الأَنْسَنَة الوحيدة التي لامستْها في سجن غاييطا الذي نقلوا إليه النساء والأطفال بعد استقالات جماعية لعميد وأعضاء بلدية أوستيكا، هي توقُّف عمليات التحقيق معهم وإجبارهم على الاعتراف بأنهم خانوا إيطاليا، لقد انتهى ذلك العهد الآن، وكان آخر اعتراف وقَّعوا عليه قبل مغادرتهم سجن أوستيكا «إنهم يُحبُّون إيطاليا الحضارية، وأن الأتراك قد غرَّروا بهم»، بعد ذلك أرسلوهم إلى وجهات مختلفة: الذكور البالغون إلى فافينانا، المجانين إلى كامبانيا، اليافعون إلى سيراكيوز، العائلات والنساء إلى غاييطا وباري، كما أرسلوا أفواجاً أخرى إلى بونزا وتريميتي وآلاسيا وسنتماريثما على أن يبقى بعض السجناء في أوستيكا، لتنال الجزيرة حصَّتها من الميزانية المقرَّرة للبلديات المتضرِّرة.

أيقظها هدير الموج وهو يتدفَّق بجنون حتَّى إن التلَّة الصغيرة التي قامت عليها قلعة السجن

كانت مثلها ترتجف وتتأوَّه تحت صفعات الموج المتلاحقة. تتأمَّل حمد وهو نائم في حِضْن عالية، كان هادئاً وجميلاً رَغْم ذبوله، رموشه الطويلة المعقوفة كهلال، شَعْره الناعم الذي نما من جديد، القشور الحمراء التي خلَّفها البرد على وجنتَيْه، يداه الصغيرتان المتشقِّقتان من البرد والجفاف وهما تتشبَّثان بثوب عالية كملاذ أخير، شعرت بقبضة متوحِّشة تعتصر قلبها، تهزُّه بعنف، تُوقِظها من غيبوبتها: ماذا سيكون مصير الولد من بعدكِ؟ مَنْ له غيركِ؟ تستقرُّ نظراتها على عالية التي أرسلها القَدَر، كزيتونة دافئة تضمُّها إلى جِذْعها العجوز، تُوبِّخها حيناً، وتُطَبْطِبُ على قلبها حيناً آخر، وباتِّجاه كُوَّة الباب، حيث يطلُّ شروق خجول، دسَّت دعاءً في طرف التجلِّيات العائدة إلى السماء، كان قد انزلق على لسانها: يا ربّ، حَنِّنْ قلب عالية على حمد.

جاءت الطبَّاخة الأثيوبية التي تُوزِّع وجبة الطعام الوحيدة عند الخامسة مساء، يرافقها شرطي يدفع العربة أمام الزنازين، وضعت ثلاثة أرغفة من الخبز وقَصْعَة حساء تعوم في قَعْرها حبَّات من المكرونة، وَشْوَشَتْ لها عالية أن تُسخِّن الحساء من أجل حليمة، «الطفلة مريضة، تحتاج إلى شراب ساخن»، لم تعترض المرأة، لكن الشرطي نهرها، وطلب منها عدم الالتفات إلى مطالب السجناء، بعد أن سجَّلت تقارير المفتِّشين زيادة في استهلاك الصابون والمكانس والتوابيت وطوابع البريد للمراسلات الحكومية، عادت المرأة بعد قليل متسلِّلة بطبق حساء دافئ، وقالت بعربية

متكسّرة، إنها تحاول توزيع الحساء ساخناً، لكنه يبرد في الطريق بسبب الطقس.

- اسمها هلالة، من برّ العبد، امرأة طيِّبة.

قالت عالية دافعة إلى حليمة حصَّتها، وفتَّتت بعض الخبز في الحساء، أطعمت حمد حتَّى شبع، وأكلت ما تبقَّى في القَصْعَة. في اليوم التالي قالت هلالة وهي تغترف الحساء للنزيلات إن إدارة السجن ستعتمد إجراءات تقشُّفية خلال الأيَّام القادمة، إذ إن مدير السجن الكوماندو فارينا تعرَّض لوشاية من شخص ما في الأمن العامِّ، واتَّهموه أنه يأكل من وراء مخصَّصات التموين، ونقلت عنه وعداً في حال حافظ السجناء على سلوك حسن سوف يقوم بتعويضهم في وجبات الشهر المقبل، لم تفهم حليمة ما معنى يأكل، وما هو المطلوب منها، لكنها أومأت بالموافقة، كذلك فعلت امرأة ثلاثينية صفراء وشديدة النحول اسمها عزيزة جاءت من زليتن، تقطن الزنزانة المجاورة، أمَّا عالية التي توطَّدت علاقتها بهلالة، وأصبحت أكثر قدرة على ترجمة برطمتها الحبشية ذات الكلمات العربية المنغلقة، فقد شهقت وأطلقت ما طاب لها من شتائم محلِّيَّة، ثمَّ التفتت نحو رفيقَتَيْها، وقالت:

- تقول إنه سيأتي مفتِّش من المتصرِّفية، ويتوجَّب علينا أن نقول له إنهم يقدِّمون إلينا وجبة إفطار من البيض والحليب والشاي والقهوة.

- لكننا لا نأكل إلَّا وجبة واحدة من المكرونة بالماء، قالت حليمة.

- لعنة الله عليهم، سرقوا وطناً، كيف لا يسرقون فطور المسكينات؟! قالت عزيزة.

في اليوم التالي لم يأتِ المفتِّش، لكن الكوماندو فارينا اتَّخذ إجراءات صارمة لتعويض العجز، فتخلَّص من شركة خدمات النظافة، وأصبح على السجينات القيام بأعمال الكَنْس وتفريغ المباول وإحضار الماء من الصَّهْرِيْج وتوزيعه على الزنازين، وغسل الحصائر المصنوعة من سَعَف النخيل، تلك التي طالب بجَلْبها خصِّيصاً من مِصْرَاتَة في مراسلة رسمية لوزارة الداخلية، قال فيها إن السجناء العرب مزَّقوا المُلَاءَات القماشية، وربطوها عمائم لرؤوسهم وأحزمة لظهورهم، وتقاسمتْها النساء للحماية المعتادة في كلِّ شهر. في اليوم الآخر أرسل الأولاد الذين تجاوزوا سنَّ العاشرة للعمل في المزارع القريبة من الثُّكْنَة تحت حراسة الجنود، مقابل خمسين سنتيماً عن كلِّ رأس يُسلَّم إلى إدارة السجن، كما استغنى عن الطبَّاخين، واكتفى بهلالة طاهية وحيدة تطبخ للجنود، أمَّا السجناء، فعليهم أن يتدبَّروا أمرهم مع الماء والبصل والملح وحبَّات المكرونة، فيما جرى اتِّفاق مع المخبز على تحضير أرغفة بوزن أربعمائة جرام عوضاً عن ستُّمائة جرام السابقة، وعندما جاء المفتِّش وراجع الحسابات ومخزن التموين شهد بنزاهة فارينا، وأوصى في تقريره بترشيد النفقات، وقال في خطابه إن السجناء يتناولون فطوراً مُترَفَاً من الشاي والقهوة والبيض والحليب إضافة إلى وجبة الغداء، ذلك يكلِّف خزينة الدولة ستَّة آلاف ليرة كلَّ شهر،

مُطالِباً بإعادة النظر في هذا الإسراف، لكن فارينا الأكثر دهاء ردَّ على الخطاب بأن المبلغ يذهب جزء منه أجرة مترجمين وحلّاقين وحمّالين، ودفع تكاليف الإنارة والصابون والقرطاسية وشراء التِّبْن ودَفْن الموتى، وشراء الحطب لتدفئة مكاتب الموظّفين، بهذا أرسلت الوزارة لفارينا وسام تقدير، وتهامس الجنود بأنه لو علم جوليتي لعيَّنه وزيراً للمالية، ولحطَّم تمثال كوينتينو سيلا الذي أنقذ الخزانة الوطنية من حالة موت سريري في عهد حكومة لانزا قبل أربعين عاماً، ونفخ في روحها ثمانية ملايين، من ضرائب شملت كلَّ شيء حتَّى الماء والتراب والهواء.

في الأيَّام الأولى فرح الأولاد بالخروج إلى العمل في المزارع، تعالى ضجيجهم وضحكاتهم، وشاهدتْهم عالية ينادون بعضهم بعضاً، أَسرِعْ يا فرج، يا إسماعيل، أين أنتَ يا منصور، يا عبد الحفيظ، وكان سليمان ابن عزيزة أكثر الأولاد ضجيجاً، وربَّما كان أكبرهم سنّاً، فقد اخضرَّ مكان شاربه بزَغَب ناعم، وطالت قامته بضع سنتيمترات عن الأولاد الآخرين، كانت عالية تحمل سطلاً من الماء تكبُّه على الأرضية أمام مكتب الجنود، ثمَّ تشطفها بالممسحة حين حيَّاها سليمان باندفاع لاهث، وسألها أن تسمح لحمد بالخروج معهم لقطاف الزيتون:

- دعيه يخرج معنا.

- إنه صغير، لم يبلغ العاشرة.

- أمس أَطْعَمُونا بيضاً وكعكاً، دعيه يذهب.

تباكى حمد وألحَّ في الرجاء، أصرَّ الأولاد وتوسَّطت عزيزة «لا تخافي عليه، سيعتني به سليمان»، أذعنت عالية، وكانت حليمة قلقة، لكنها اشتهت له كعكاً وبيضاً، في المساء عاد بيدَيْن متشقِّقَتَيْن وخدوش الأغصان على وجهه وذراعَيْه وساقَيْه، ومرجين الزيتون يُلطِّخ ثيابه. أخرج من كُمِّه قطعة صغيرة من كعك خشن، قدَّمها لحليمة:

- ذوقيها.

في يوم آخر عاد بأصابع زرقاء متورِّمة، وسقط في الفراش مثل رُطْبَة، قرَّرت عالية ألَّا يذهب ثانية، وتعمَّدت ألَّا تُوقِظه صباحاً، ناداه سليمان، أجابتْهُ أنه مريض فمضى. عندما استيقظ لم يبكِ، ولم يأسف على ما فاته، قبل أن يُقفلوا الزنازين سمعت حليمة نداء عزيزة وهي تقطع الفناء الترابي باتِّجاهها، تركض وتركض وتُلوِّح لها بيدها، وكانت البطَّانية التي تلحَّف بها الجزء العلوي من جسدها ترفرف مع الريح، وتُطلق بَقْبَقَة مضحكة، توقَّفت حليمة بانتظارها، ولمَّا وصلت دسَّت بيضة مسلوقة في كفِّها (جابها لك سليمان، كُلِيها، أنتِ مريضة).

كانت الليلة الأخيرة التي يبيت فيها سليمان مع أُمِّه في الزِّنْزَانَة، مساء اليوم التالي عاد الحرَّاس متجهِّمين وغاضبين، وصرخ الأولاد فور دخولهم الفناء: سليمان هرب، أطلقت عزيزة صيحة مُدوِّية، وسقطت على الأرض، تقافز جنود الكاريبينيري بأسلحتهم وكلابهم البوليسية وعِصِيّ رَدْع الشغب، وانطلقوا باتِّجاه المزارع المحيطة

بالمعسكر، وكانت عزيزة تنوح في زِنْزَانَتِهَا طَوَالَ الليل، وبقية النساء يعالجنَ الكدمات المتورِّمة على ظهور الأولاد التي أكلتْها السِّياط في غرفة التحقيق: مَنْ قابلتُم؟ مَنْ كلَّمتُم؟ أين ذهب سليمان؟ كان حمد يجيبهم في كلِّ مرَّة أكلنا الكعك والبيض وجمعنا حَبَّ الزيتون في معجنة كبيرة. وفي كلِّ مرَّة تُسلَخ قَدَمَاه الصغيرة بعصا الخَيْزرَان، وحده سليمان حمل سرَّه معه، هناك مَنْ قال إنه عاد الى طَرَابُلُس على متن سفينة تجارية، وهناك مَنْ قال ركب القطار مع فتاة ساعدتْهُ على الفِرَار إلى فرنسا، لكنَّ أحداً لم يعثرْ له على أثر.

مساء اليوم الثاني عند وقت المغيب الذي جاء واهناً كظلِّ شبح عجوز، اشتدَّ الهَرْج وصليل الأقفال على أبواب الزنازين التي تشدَّد الحرَّاس في إقفالها بعد حادثة هرب سليمان، جاء شرطي وأحضر لوحاً خشبياً آخر من تلك المُخصَّصة كأَسِرَّة على شكل ظهر حصان، وقذف فوقها فرشة مَحشُوَّة بالتبن، ووسادة هي الأخرى مَحشُوَّة بالتبن، وغطاءً من بطانة رخيصة، عاد ثانية يُجرجر امرأة أربعينية باكية، دفعها إلى قاع الزِّنْزَانَة، وأقفل الباب. كانت حنطية جميلة بوجه مستدير ووشم أخضر يشقُّ أسفل شفتها السفلى، تضرب فخذَيْها وتنوح بلهجة بدت غريبة لحليمة، عالية التي انشغلت طيلة المساء بمواساتها قالت إنها لهجة بَنْغَازِيَّة.

- دعيها تبكي، لا تُكمِّميها، قالت حليمة.

- بكينا قبلها .. ما الجدوى؟ ردَّت عالية.

هدأت أخيراً، بِعَبْرَة منتفضة دفنت وجهها في

الوسادة من دون كلام. حلَّ المساء، وكانت حليمة مُنهَكَة من السُّعال، وكان حمد منكمشاً في حِضْن عالية يبكي مشتهياً عصيدة، أطعمتْهُ قطعة خبز اقتطعتْها من الغداء، ثمَّ نهضت وحملتْهُ على كَتِفَيْهَا، والتصقت بالباب، فانشغل بالنظر عبر القضبان، من زنازين مجاورة كانت تصلها أسئلة السجناء القدامى يستقبلون بها مَنْ وصلوا اليوم، أسئلة هاربة من خلف الجدران تعبر بشوقها وحنينها وأُمنيَّاتها وحرارتها، تطير كفراشات تحطُّ على الأبواب، فيلتقطها السجناء كالبشارات الدفيئة:

- كيف حال الأهل؟

- أنتَ من طُبْرُق؟

- البِيْضَاء؟

- كيف الأهل في مِصْرَاتَة؟

- جاي من تَرْهُوْنَة.

- أنا من يِفْرِن.

- من العَزِيْزِيَّة.

- كيف جملة وِرْفَلَّة كلّهم؟

وشيئاً فشيئاً تنطفئ الأصوات، يلوذون بالصمت، يطويهم الليل والبرد والظلام والقهر والحزن والأيَّام المتشابهة، تعوي رياح الشتاء محمَّلة بالصقيع، ويتسلَّل البرد عبر ثقوب الجدران، يضيء البرق فوق قمَّة البرج الكئيب، فتصرخ حليمة من هول العلامة، «لقد جاء»، تُبَسْمِل عالية «خيراً يا ربّ، مَنْ هو؟» تجيب بهلع «الطلياني قَتَلَ أُمِّي

وسيقتلني».

تنفث لها عالية في صدرها المثقوب بالداء، ثمَّ تدهنها بزيت كانت قد دسَّتْهُ لها هلالة مع الوجبة، وعلى مقربة تترنَّم سليمة البَنْغَارِيَّة بصوتها الرخيم، أبياتاً تناقلها السجناء الذين نقلوهم من سجن فافينانا:

يا طير يا طاير يا حايم في السما

ياللي خلقلك ربنا جنحان

تعال نشكيلك على حال ما جرى

راني غريب وأنت من الحبّان

يا طير يا مشكاي روح لوطنّا

وصّل سلامي والسلام أمان

كان ينشدوا على الحال في حالة كدر

مرايف عليهم خاطري ولهان(8)

يَدِبُّ الخَدَر في جسد حليمة المنهَك، فتغفو تاركة المرأتَيْن تتقاسمان الوجع والحكايات والسلوان، يدفعان عنهما وحش الظلام الذي يأكل المصابين بالأرق أو بالحنين، تحملان معاً صُرَّة الحكي، وتنثران ما فيها كبذور قمح على سهول بلَّلها المطر.

- نُحضِّرها بالسمن، السمن أطيب.

- نحن بالقديد، حسين يحبُّها بالقديد.

- هي فطورنا في رمضان.

- مفتاح يفطر على اللبن والمثرودة.

- عندما أعود إلى بيتي سأطبخ وأُفرِّق على الجيران، وسأقول تعلَّمتُها من سليمة البَنْغَازيَّة.

- لمَنْ سأعود أنا، يا رفيقتي؟ ولمَنْ سأطبخ؟

- هَوِّني عليكِ.

تشهق سليمة، وتمسح دموعها، تجلس في مخدعها، وتُلَمْلِمُ الغطاء على كَتِفَيْهَا، تعيد حكايتها:

- ترمَّلتُ وأنا أُمٌّ صغيرة، كان زوجي في قافلة راحلة إلى فَزَّان حين هاجمهم اللصوص ونهبوا جِمَالهم ثمَّ قتلوهم. ربَّيتُ مفتاحاً، وكان عُمُره عامَيْن، في بيت أهلي، وصار أخي أباً لكلَيْنا، أخي الوحيد حسين، قطعة من كَبِدِي، كان يحبُّ أن يسمع غنائي على الرَّحَى: «يا بنت داري على خوك .. خير من ولد من حزامك .. يعزّك إن كان ضاموك .. ويشرط عليهم إحسانك». يضحك ويقول لي: مَنْ تراه الأَحَبّ، الولد أو الأخ؟ كنتُ أقول له الولد تخلفه لكن الأخ لا يُخلف .. مضت السنون. صار مفتاح على أبواب الصبا في الرابعة عشرة، أراقب طوله كلَّ يوم وأنتظر متى يحاذي خاله، إلى أن جاء يوم مشؤوم، صفَّرت فيه بواخر الطليان، وقصفتْنا المدافع، غادرَنا حسين، وخرج مع المجاهدين، ضربوا في جُولْيَانَة وانتصروا، وفي الكُوِيْفِيَة كاد أن يقع في الأسر بعد أن أُصيب حصانه، لكنه فَلَتَ منهم ونجا. في ذلك اليوم داهم الطليان البيت بحثاً عن حسين، واقتادوا مفتاحاً بديلاً عنه، مهدِّدين أن يشنقوه إذا لم يُسلِّم حسين نفسه، هل تعرفين ماذا حدث؟ عاد حسين في الليلة نفسها، وقال لي: «جابتْني

غناوتك»، ثمَّ سلَّم نفسه لهم على أمل أن يُطلقوا سراح مفتاح، لكنهم شنقوا الاثنَيْن، الاثنَيْن.

(8) (الفضيل الشلماني - معتقل في سجن فافينانا).

على بُعد عشر دقائق سيراً على الأقدام من مقر التُّكْنَة المخصَّصة كمستوطنة عقابية للسجناء الليبيِّيْن في جزيرة أوستيكا، وفيما كان باولو فاليرا وساندرو كومباريتي يحثَّان باتِّجاه المقرّ، اجتاحتْهما رائحة خانقة تتعاظم كلَّما اقتربا من البَوَّابة الخارجية. فاليرا الذي يعرف الكثير عن تاريخ إيطاليا في العصور الوسطى وعن مستعمرات الجُذَام التي كانت تفوح روائحها على مسافة بعيدة من دَيْر القدِّيس لازار الذي خصَّصتْهُ روما لحَجْر المجذومين في القرن الثاني عشر، لم يَدُرْ بخَلَده أن يشهد شيئاً كهذا في إشراقة القرن العشرين، إلى أن دخل عنبر السجناء الليبيِّيْن، ورأى الهياكل البشرية التي زحفت من مراقدها تُجرجِرُ أسمالها في القبو النتن، حيث البؤس هو الشيء الوحيد الموزَّع بشكل جيِّد على الجميع، حدَّثهم بالعربية، فتوقَّدت نظراتهم بحنين معذِّب، بشوق ولهفة موجوعة: «لماذا نحن هنا؟»، «نريد العودة إلى وطننا»، «لسنا أسرى حرب، لقد أخرجونا من بيوتنا»، «جائعون جدّاً والبرد يُفتِّت عظامنا»، «أين رسائل أهلنا؟» أمَّا ساندرو، فقد وقف بعيداً ذاهلاً في صمته حاملاً إحساس الخِسّة نيابة عن أُمَّة إيطاليا بعصورها جميعها الوسطى والنهضوية والتنويرية، الشيء الوحيد الذي ألحَّ في السؤال عنه هو الفتاة حليمة، فأكَّد له مدير السجن بأن لا وجود لفتاة بهذا الاسم ضمن الفوج الذي وصل ليلة التاسع والعشرين من أكتوبر، «لقد مات كثيرون قبل وصولهم إلينا». حسم مدير السجن

حديثه مع ساندرو، وكان أفضل ما قاله له: «إذا كانت الفتاة على قيد الحياة، فقد تجدها في سجن غاييطا»، ثمَّ انحنى مُعِيْداً فَحْص التوقيعات على تصريح الزيارة الذي أثار في نفسه الريبة، حتَّى إنه أدار قرص الهاتف، واتَّصل شخصياً بمكتب وزير المستعمرات للتأكُّد من مصداقية الرجلَيْن الواقفَيْن أمامه بمُعَدَّات التصوير، إذ إن إطلاع الصحافة على ما يَحدُث داخل المنافي يُعدُّ سابقة استثنائية لم تَحدُث من قبل، ولم يستطع أن يُبرِّر هذا النَّزَق البرلماني الذي يضع الحكومة في مواجهة الرأي العامِّ. كان ساندرو قد استعان بوالده للوصول إلى فيليبو توراتي صديق القطار القديم، بمراسلة عن طريق مكتب الحزب في ميلانو، وجاء ردُّه بوعد شخصي بتمكين باولو فاليرا من زيارة السجناء، ربَّما لأن توراتي أراد أن يقول شيئاً للحكومة بلغة التوازن السياسي كزعيم لكتلة الاشتراكيِّيْن في البرلمان، وشدَّد كثيراً على فاليرا أن تصل قصَّة الفتاة المعتقلة إلى الرأي العامِّ.

أبحرا في الليلة ذاتها على متن سفينة قديمة تعمل بقوَّة البخار، كانت هي الوحيدة في ميناء كارلا سانتا ماريا في طريقها للإبحار إلى غاييطا، أخبرهما البحَّار الذي يرتدي قُبَّعة لها جناحا غراب بأن لا شيء من الطعام يُقدَّم في السفينة، ولكنْ، إذا استمرَّ الموج بهذا الهدوء، فستظهر شواطئ غاييطا خلال الصباح الباكر.

بهذا التحفا بقطعَتَيْن من القماش المشمَّع، كانتا فيما مضى جزءاً من شراع قديم، واستندا

متجاورَيْن على كومة من شِبَاك الصيد، وعلى ضوء مصباح جيب، أعاد فاليرا مراجعة مفكِّرته التي دوَّن فيها محاورته مع السجناء، ووضع علامات حول أشياء بدت له مهمَّة، وخاطب ساندور متسائلاً:

- لدينا خمسمائة قتيل، من بينهم مئة وسبعة وثلاثون ماتوا بالكوليرا فور وصولهم، هذا على غير الجثث التي أُلقيت في البحر، لا أعرف إذا كانت فتاتكَ ما زالت على قيد الحياة.

- أنا أيضاً أشكُّ في قدرتها على الصمود في هذا الوضع البائس.

- ما زلتُ لا أفهم ماذا تريد منها؟! هل تريد أن تُقنعَني بأنكَ مهتمٌّ بطلب مغفرتها؟!

- ليس بالأمر الذي يمكن مغفرته، أخبرتُكَ بكلِّ شيء، لقد حدث ما حدث في ذلك اليوم المشؤوم.

- أخبرتَني أنكَ أُغرمت بها.

- لا أُنكر أن قلبي خَفَقَ لها، إن جمالها مذهل وسليم حتَّى إنكَ تتمنَّى أن تقف بعيداً وتتأمَّلها كما تتأمَّل طائراً نادراً تخشى أن تُجفِلَهُ.

اعتدل فاليرا في جلسته، ودفع عنه كراتٍ خشبية صغيرة تدحرجت من شِبَاك الصيد، أطفأ مصباح الجيب، وحدَّق في الظلام في الاتِّجاه الذي يأتي منه صوت ساندرو وقال:

- وبعد؟

- ماذا؟

- لماذا تريد أن تُفلسف ظاهرة الحُبِّ؟

سكت طويلاً حتَّى ظنَّ فاليرا أن سؤاله قد سقط في البحر، ثمَّ أجابه:

- بعض الحبِّ أشرفُ له أن يموت شهيداً.

باغتَهُ وجهها في الظُّلمة حزيناً ومتسائلاً ومعاتباً بتسامح مقهور، وشعر برغبة مُلحَّة في أن يكون وحيداً، صَعِدَ إلى ظهر المركب، وأشعل سيجارة، وترك الريح الباردة تعبث بسحائب دخانه وأطراف سترته وشاله الصوفي المربوط حول عنقه، متأمِّلاً العراء الفاحش للكون الذي سقط على البحر، وتواشج مع هدوئه وغموضه وجبروته وانسيابه، شعر بأنه أصبح غريباً عن نفسه، خائفاً من حقيقة أن يكون عاشقاً متوحِّداً وممتلئاً بإجهاشة غامضة، متوجِّساً من لعنة الحبِّ التي قتلت ريكاردو، ومن قبله روميو، متسائلاً في الوقت ذاته لماذا لا يكون شجاعاً مرَّة واحدة، عارياً أمام نفسه؟! لماذا عليه أن يُفلسف مشاعره، لكي ينال شرف التطهُّر من الخطيئة؟! ربَّما ليس بإمكانه أن يسدِّد دَيْنه للفتاة، لكنْ، عليه أن يُقبل على حياته القادمة مخلِصاً ومتجرِّداً من أجل الحقيقة، فالحقيقة هي أفضل تعميد للروح.

قبيل الفجر بقليل استيقظت حليمة على نوبة سُعال جديدة وشعور أكثر انقباضاً منذ أن قرَّر طبيب السجن نقلها إلى غرفة العَزْل، كان في الغرفة أيضاً عجوز مجعَّدة التفاصيل اسمها رجعة، لديها سنٌّ واحدة في الفكّ السفلي، وتسعل مرتَيْن في الدقيقة، ثمَّ تعود لتشخر في نوم يشبه الغيبوبة، قيل إنه قبضوا عليها، لأن ثلاثة من أولادها شاركوا في تصفية جنود البرساليري، لكنها لم تعد تذكر ذلك، ولا تعرف شيئاً عن حياتها السابقة سوى أنها ركبت البابور في ليلة مظلمة، ومن محاسن الشيخوخة أنها نسيت كلَّ ما حدث في إسطبل السفينة أو ما كان في القبو العَطِن في جزيرة أوستيكا، وكلَّما فُتح باب الزِّنْزَانَة كانت تستجدي طاسة شاي، طاسة دافئة حلوة بسُكَّر زيادة مع النَّعْنَاع تُرطِّب ريقها الناشف، وكان الدكتور ماريلا طبيب السجن متعاطفاً مع أُمنيَّتها المشتهاة، فطالب بتقديم وجبة إفطار لنزيلات عنبر العَزْل المصابات بداء الرئة، تتضمَّن الشاي والحليب والبيض المسلوق، ووافق مدير السجن، إذ إن ذلك لا يُكلِّف شيئاً يُذكَر، فالمريضات سرعان ما يفارقنَ الحياة، ثمَّ سمح بتقديم كأس الحليب فقط، ونسي أمر البيض، أمَّا الشاي، فمن الأفضل أن يذهب لتدفئة الجنود وهم يقومون بمهامِّهم الشاقَّة في حراسة النزيلات.

حاولت حليمة أن تغفوَ قليلاً مستندة إلى الحائط حين لم يعد باستطاعتها النوم مضطجعة، وسرعان ما شعرت بالإعياء، وعاودتها حالة الاختناق، تكوَّرت

في وضع جنيني محاوِلة التقاط بعض الأنفاس، ولم تتخيَّل رَغْم النكبات كلِّها التي مرَّت بها منذ ذلك اليوم الأسود أن يصبح الهواء أعزَّ مطلب في الحياة. أعادت تسوية الغطاء على قَدَمَي العجوز العاريَتَيْن المشقَّقَتَيْن كلِحَاء شجرة مُعمَّرة، تخطَّتْها وزحفت باتِّجاه المِبْوَلَة المعدنية في زاوية الغرفة، كانت ممتلئة ونَتِنَة، حيث أغلقوا الزنازين مع الغروب دون أن يأتيَ أحد لإفراغها، بالت كيفما اتَّفق، وشعرت بالبَلَل يُلطِّخ ثيابها ويُفاقِم من حرارة الطَّفَح الجِلْدِي على فخذَيْها، حينها أطلقت لدموعها العِنان. بكت بإخلاص تامٍّ ومُتعة باهظة كادت أن تنسى فاعليَّتها في تنفيس العذاب، متجاهلة نصائح عالية بعدم إصدار أصوات في الليل، فالنساء كلُّهنَّ في السجن حريصات على ابتلاع أوجاعهنَّ ليلاً منذ تلك الحادثة التي راحت ضحيَّتها امرأة باكية، في تلك الليلة العاصفة تهاطل الثلج كنُخَالة بيضاء تَذْرُوها الريح بصفير مُوحِش، الحرَّاس كانوا يُقَهْقِهُون في الرِّواق المخصَّص لهم على مسافة من الزنازين، وقيل إنهم يحتفلون بالعيد، حيث غمرت الهواءَ رائحةُ حساء لحم وفطائر مَقليَّة وأشربة متخمِّرة، وسرعان ما ضجَّ الرِّوَاق المخصَّص لهم بغناء متهدِّج يوحي بحالة من السُّكْر الثقيل، كانت المرأة الشابَّة التي مات لها طفل رضيع تبكي كلَّما آن وقت إرضاعه، تدسُّ يدها داخل صدرها وتروح في نوبة من البكاء، في تلك الليلة وفيما هم في سَكْرتهم وهي تنوح مثل سائر لياليها، اقتحموا عليها الزِّنْزانَة وأخرجوها عَنْوَة، وَلْوَلَتْ وصرخت، وبكت معها بقية السجينات رعباً

وقهراً، لكن ذلك لم يحل دون ما أرادوه، شاهدت حليمة على ضوء المصباح الشاحب انعكاس ظلِّ المرأة على جدار البرج قُبَالَة الزنازين، وشاهدت الأشباح التي تهوي وترتفع فوقها، أشباح تتبادل موقعها فوق جسد المرأة وهي تُغَمْغِم لاهثة تحاول التقاط أنفاسها ما بين مقاومة وصراخ، في الصباح ماتت بشكل غامض، وحملوا جُثَّتها إلى المَقْبَرَة، وقرَّع مدير السجن بقية السجينات، وقال التُّرْجُمَان إنه يُمنَع من اليوم فصاعداً أيُّ سلوك من السجينات ينطوي على إيحاء جنسي، إذْ إن إيطاليا العظيمة ترفض أن يختلط عِرْقها السامي بجنس العربي الأسود، وذلك يُسبِّب إحراجاً كبيراً لمشروعها الحضاريّ. وعُدَّت ملامسة المرأة لصدرها أو البكاء الليلي نوعاً من الانحراف الذي تُعاقَب عليه السجينات.

لقد بكت كما ينبغي، وسَعَلَت وهي تضع يدها على صدرها المذبوح غير مكترثة بتهويمات الانحراف، وضحكت في صميم بكائها من فكرة خَدْش الفضيلة الحضارية، ولكي لا تبخَس هذه الدموع قيمتَها تخلَّصت من فكرة البكاء بسبب آلام طفح الفخذَيْن أو بسبب ضيق التنفُّس وانحباس ماء السلِّ في رئتَيْها المعلولَتَيْن، كانت تريد أن تبكي على شيء أكثر نُبلاً، أن تبكي على نفسها، أن تقيم سُرَادِق عزاء يليق بعهد العافية ورونق جمالها المهدور، كانت تريد أن تشيِّع آخر ساعات العُمُر بوداع مهيب، يُوقِظ كلَّ مَنْ في العنابر للبكاء معها الآن، تريد أن تسمع نُوَاحاً حارّاً من أجلها وهي تَسعُل وحيدة ومَوبُوءة

ونَتِنَة وعاجزة عن التنفُّس. وتعجَّبت لماذا يُؤجِّل الناس بكاءهم على موتاهم إلى ما بعد خروج الروح في وقت يكون الموت متغلغلاً فيهم وينازع أنفاسهم الأخيرة؟! في تلك اللحظة شعرت بتلك الخاصِّيَّة الرائعة التي حدثت للتوِّ مع أوَّل خطوة نحو الاحتضار، صار بإمكانها الانسلاخ من جسدها الموبوء والجلوس فوقه تتأمَّل ما حلَّ به من دمار، كما يجلس قتيل مغدور فوق قبره مُنتظِراً عدالة السماء.

في الصباح الباكر جاء الحرَّاس، أفرغوا المِبْوَلَة، ونثروا تراباً جديداً على الأرضية، استبدلوا البطَّانية المتَّسخة بالقيء، وقدَّموا لهما الخبز مغموساً بالحليب الدافئ، علمت بعد قليل من هلالة الأثيوبية أن صحفياً كبيراً سيزور السجن هذا اليوم، عاودها السُّعال الحادُّ، واختنقت أنفاسها من جديد، وشاهدت نفسها تخرج من جسدها، وتنسلخ منه كفراشة تتحرَّر من شَرْنَقة، تُحلِّق تحت شمس طَرَابُلُس معافاة وجميلة، تحطُّ في أرض السانية، هنالك تتنفَّس هواء طَرِيَّاً، يملأ رئتَيْها بطزاجة مُنعِشة، تلتفت فتسمع بشيراً يناديها عند طوابي الصَّبَّار .. تتأمَّل عينَيْه الواسعَتَيْن .. شاربه اليافع كخطِّ الفحم .. نقرة الحُسْن على ذقنه الأسمر .. يُشرِع لها ذراعَيْه على اتِّساعهما .. تعالي حليمة.. أنتظركِ .. تقفز نحوه كعصفورة .. يبتسم فتتفتَّح ابتسامته مثل ياسمينة ... تستلقي بين ذراعَيْه وتتعلَّق بعُنقه .. يضمُّها .. يُكمِل قُبلته التي تبدَّدت ذات ليلة عن خَدِّها .. يغمرها الدفء .. تغفو على صدره طويلاً .. طويلاً .. حياة سرمدية

بلا ألم ولا طفح ولا سُعال ..

***

في عنبر العَزْل وفيما هي في غيبوبتها ومن حولها الدكتور ماريلا بشَعْره الأبيض وبقع الشيخوخة التي تغطِّي بشرته الشاحبة، وقف ساندرو مشدوهاً ينظر إلى مخلوقة شبه حطام، عينان غائبتان في مَحْجِريْهِما، وخدَّان غائران، أطراف معقوفة من شدَّة الذبول، أخبرهما الطبيب أن حالتها سيِّئة، تذهب في غيبوبة ثمَّ تصحو «هكذا مرضى السِّلِّ لا يمكن التكهُّن بحالتهم، لكنها أبداً ليست على ما يرام» قال بنبرة منكسرة.

انحنى فاليرا هامساً لساندرو، فأومأ الأخير وانسحب خارجاً، جلس فاليرا قُبَالَتَهَا على المَقْعَد الذي أحضره له الطبيب، تأمَّل ما تبقَّى من لوحة جمالها الغابر، رموش سوداء كثيفة، أنف روماني مذهِل وشفتان مستديرتان، همس فاليرا قريباً من وجهها:

- حليمة.

كرَّر النداء عدَّة مرَّات إلى أن رمشت وتغضَّنت قسمات وجهها، ثمَّ فتحت عينَيْها، حاولت الكلام، فمنعتْها موجة صفير في صدرها خرجت مثل صوت قطار قديم يَؤوب إلى مَقْبَرَة الخُرْدَة، كانت ذابلة ومُنهَكَة ومَكْسُوَّة ببقع زرقاء على جِلْد ذراعَيْها، لكنها تحاملت على نفسها وتكوَّرت كما هو الوضع الجنيني الذي تستطيع التنفُّس فيه بحال أفضل، بدا لفاليرا أنها تحاول أن تقول شيئاً،

كأنها مَعنيَّة بخطاب تاريخي، يجب أن تنتهي منه قبل أن يأزفَ موعد الرحيل. وفي انتفاضة السُّعال الحادِّ وانبعاث الصفير من صدرها المعتلِّ مدَّت رأسها باتِّجاه الباب، وغَمْغَمَت في حشرجة خشنة: «لقد جاء .. جاء»، تشبَّث فاليرا بطوق كلماتها، وسأل بتفاؤل: «مَنْ هو؟» غَمْغَمَت: «الطلياني الذي قتل أُمِّي»، ثمَّ شاهدت نفسها تنسلخ من الجسد المتهالك، في تلك الخاصِّيَّة الرائعة، تنهض لتسير على قدمَيْها بقَوَام متشامخ، تنفض جناحَيْها استعداداً للتحليق كفراشة تحرَّرت من شرنقة، شاهدت الصحفي والطبيب ينهضان ويغادران الغرفة، والممرِّضة تُسدل الدِّثَار على وجهها، وعالية وسليمة تنتحبان في العنبر المجاور، وتتجاوزان تعليمات الحرَّاس، وكان هناك شبح رمادي باهت يقف أمام الغرفة مُتصلِّباً بلا حَرَاك، ثمَّ صار كلُّ شيء في غاييطا يختفي .. يصغر ويتلاشى .. مثل نقطة تافهة في عرض البحر .. وحده حمد كان يكبر .. ويكبر .. يسير نحو المَنْشِيَّة .. يزرع أرض السانية ويسقي الأشجار.

تمَّت

طَرَابُلُس20 -10- 2020

كان باولو فاليرا هو الصحفي الوحيد الذي تمكَّن من زيارة السجناء الليبيِّيْن في مستوطنات العِقَاب الإيطالية، وتحدَّث إلى السجينات قبل أن يختفينَ إلى الأبد.

